بنت مريم

جميلة جمعة

بنت مريم

رواية

Qindeel | قنديل

Maryam's Daughter

Jamilah Jumah

Novel

بنت مريم

(رواية)

جميلة جمعة

© 2018 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، و بأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلا ف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

موافقة « **المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: MC-02- 01-1546924 تاريخ 2018/9/2

ISBN: 978 - 9948 - 39 - 637 - 6

قنديل | Qindeel

للطباعة والنشر والتوزيع
Printing, publishing & Distribution

ص.ب: 47417 شارع الشيخ زايد
دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae
الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© جميع الحقوق محفوظة للناشر 2018

الطبعة الأولى: تشرين الأول / أكتوبر 2018 م – 1440 هـ

أُنجزت هذه الرواية بإشراف

الروائي طالب الرفاعي

في إطار برنامج دبي الدولي للكتابة

مشروع نابض.. وجيل واعد

منذ إطلاق «**برنامج دبي الدولي للكتابة**» عام 2013، تحت رعاية سمو الشيخ أحمد بن محمد بن راشد آل مكتوم، رئيس **مؤسَّسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة**، كان علينا مضاعفة الجهود؛ لنكون أكفاء لتحمُّل مسؤولية إعداد جيل من الكتَّاب الشباب لحمل مشعل الفكر، وليصبحوا في مصاف الكتَّاب العالميين، وقد آلينا على أنفسنا أن نذلِّلَ كلَّ العقبات التي تحُول دون نجاح هذا المشروع الحيوي النابض، الذي يعكس وجهاً حضاريّاً آخر من وجوه دبي.

وها نحن ذا، نرى عشرات الكُتَّاب الشباب الذين تخرجوا في البرنامج في مختلف حقول الكتابة، حيث الرواية والقصة والترجمة والكتابة للأطفال واليافعين، والأمل معقود باتجاه فنون كتابية أخرى؛ ليكتمل المشهد الإبداعي مع جيل موهوب يتقن فنون الكتابة الاحترافية، حسب منهج علمي ولغوي، وتقنية صحيحة، جيل تدرَّب على أيدي أساتذة أكفاء، نقلوا له المعارف والخبرات والمهارات اللازمة؛ لتكتمل دورة المشهد الاحترافي، والهدف الكبير أن نصل بهم إلى العالمية.

لقد أعطى برنامج دبي الدولي للكتابة للشباب الموهوبين إبداعيّاً، جرعةً من الأمل ليحقّقوا حلمهم، ولم نكتفِ بتدريب الموهوبين داخل الإمارات؛ بل انطلقنا عربيّاً عبر ورشٍ تدريبيَّةٍ في تونس ومصر والكويت، متجاوزين الحدود الجغرافية للوصول إلى الشَّباب العربي في بلدانهم، وإطلاق ورشات تدريبية مع مدربين محليين مشهود لهم بالكفاءة؛ لتصبحَ الفائدةُ من البرنامج أوسعَ وأشمل.

لقد كان هدف البرنامج منذ البداية، دعم المؤلفين والوصول بهم إلى العالمية، في شتَّى مجالات المعرفة من العلوم والبحوث إلى الأدب، وقد لمسنا نتائج طيبة خلال الورشات الماضية؛ فقد فازت كتب من البرنامج بجوائز مرموقة، وبات يُنْظَرُ إلى هذه التجربة بكثير من التقدير والاحترام داخل الإمارات وخارجها. وها نحن اليوم ندفع بكوكبة جديدة من خريجي البرنامج إلى الساحة الثقافية، عبر هذه الكتب المتميزة التي أُنْجِزَت خلال البرنامج، ونحن على يقينٍ بأنها ستكونُ موضعَ تقديرٍ وترحيبٍ من القرَّاء والنقَّاد والمهتمِّين.

جمال بن حويرب

المدير التنفيذي

لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

الفصل الأول

7 يوليو 2000م

هل بدأ مفعول الأقراص التي ابتلعتُها؟

أم أنها الآلام بدأت كالعادة تتكالب على روحي، ترتعد أوصالي، وترتعش؟!

لستُ على ما يرام، لكن متى كنتُ؟

أنا لا أتذكرني إلا مضطربة، مشوشة، متخبطة أشعر بالقهر.. حياتي شقية، يومي كأمسي.

أبتلعُ القرص وراء الآخر، حتى أنهي ما في العلبة، أو ربما ما تبقّى من شبابي.

أقضي على حياتي بيدي.. هنا في غرفتي، لن أشفق على نفسي أو يرقّ قلبي لي.

القرص الأخير ابتلعتُه بصعوبة، ليت به خلاصي.

لا أدري لماذا يصنعون أقراص الدواء كبيرة، يصعب بلعها؟

لا أدري إن كان الدوار في رأسي أم أن مكاني يدور بي؟

كلما هدأتُ دارتْ بي الذكريات، وجاءت أشباحها لتنتصب أمامي!

أستغرب، أبقى هادئة ساهمة، كأني متمسكة بالحياة، وكأني نادمة على محاولة انتحاري.. أكثر ما يثير استغرابي لظى حرّ دموعي!

تنساب رغماً عني، وتسيل مختلطة بعرَقي، ومخاط أنفي.. تضايقني، أمسحها بعنف، لكن على ماذا أبكي؟ ولماذا أبكي؟

أودّ لو أمزّق عينَيّ.. ما أغباني؛ أعلم بأن الدموع لا تدفع الشقاء، ولكنني أذرفها دون إرادتي، أنا التي لم أتوقع يوماً أنني سأبكي بهذا القدر، وسأذرف دمعي بوجعي..

أشعر بثقل جفني، وتسارع أنفاسي.

مؤكد أن ملامحي البائسة تبعث على الحزن في نفس من يراني، وربما تنطق بيأس

دمّر حياتي!

يعاودني الإحساس بالدوار، وكأن كل ما بحولي يدور بي.. آه.

أقع على الأرض.. رأسي يؤلمني.. عنيد الموت، لا يأتي وقت نريده، يُحدّد مواعيده بنفسه، كم أتمنى لو أموت وأرتاح.

أشعر بأن ظلاماً يُخيّم عليَّ!

* * *

نـور باهـر يتسـلل إلـى عينـي بصعوبـة، ولا أقـوى علـى رؤيـة أي شـيء.

ضوضاء، صراخ، رجل ما يناديني.. لا أميز صوته.

«أسماء»..

بصعوبـة أفتـح عينـي، فأجـد مسـعفاً بثيابـه الخضـراء يطـلّ بوجهـي.

يعود الظلام يلفّني!

* * *

فـي ظلمـة ليلـة مـن ليالـي شـتاء عـام 1983م، صرخـت أمـي مريـم بوجعهـا لحظـة لفظنـي رحمهـا، مُعلنـة عـن موعـد ولادتي..

صرخـت الغريبـة فـي تلـك الليلـة البـاردة صراخـاً لا ينقطـع، حتـى وصلـت آلامهـا إلـى جارتنـا خديجـة التـي رقّ قلبهـا علـى الوحيـدة المتألمـة، فاصطحبتهـا إلـى إحـدى المستشـفيات الحكوميـة، رفقـة زوجهـا.

لـم يعـرف أحـدٌ سـرّ ذاك النشـيج؛ هـل بسـبب آلام الطلْـق، أم أنهـا كانـت تبكـي ضعفهـا وانكسـارها؟ ربمـا كانـت تناجـي أحـداً بذلـك النحيـب الحزيـن!

تقـول جدتـي إنهـا لـم تشـهد مثـل ولادة أمـي المتعسّـرة، بـل إنهـا لـم تسـمع صوتـاً مُخيفـاً كصـوت أمـي فـي تلـك الليلـة.

بماذا كنتِ تصرخين يا أمي؟

هل كنت أشقّ لحمك الدافئ وأنا خارجة من رحمك الدبق، أم كنتِ تُرتّقين الشق الذي آذى روحكِ، وجرح كرامتك بذاك الصراخ؟

بماذا كنت تصرخين يا مريم؟

* * *

آه!

أصرخ متألمة، المسعف الأحمق شكّني بإبرة مؤلمة!

الشعور بالألم غريب.. ألا يفترض بي أن أنازع الروح الآن؟ ربما كانت هذه اللحظات مُتخمة بالألم.. من يعلم؟ فلا أحد عاد من الموت ليتكلم عن آخر لحظات حياته.

بين الحياة والموت أسمع المسعف يقول لزميله:

«الازدحام يعرقلنا، سنتأخر.. ربما تموت بين أيدينا.. ليلة نحس».

ثم تتبخر أصواتهما، فلا أسمع شيئاً!

* * *

أخبرتني جدّتي أن الليلة التي ولدت بها ليلة نحس!

فقد أوشكَت مريم على الموت نزفاً، في حين غاب والدي خالد، واستمر غيابه ثلاثين ليلة، قضاها في إحدى الدول الآسيوية سيئة السمعة! ولم يرجع حتى أنفق آخر

فلس كان في جيبه، حينها فقط اضطر للتعرف إليّ وأنا طفلة أكملت شهراً من عمري بلا اسم!

كان الجميع يتفنن في إطلاق مختلف الألقاب على الطفلة النكرة، بينما اكتفى هو بمناداتي بالبنت، ولولا حنق جدتي وغضبها عليه، لما اختار لي اسماً في النهاية، ويا له من اسم!

أسماء!

حاولت أن أصل إلى سبب التسمية، خصوصاً وأن والدي بعيد كل البعد عن الدين ليختار لي اسماً من بين أسماء الصحابيات التقيات المؤمنات، ولكنني لم أتوصّل إلى نتيجة.

هل عجز والدي عن اختيار اسم محدَّد بين أسماء كثيرة كانت مقترحة عليه؟ أم أنه لم يستطع التفكير في اسم واحد يختاره لي؟ ربما لم يُرِد أن يضايق أحداً تمنى لو أنه اختار لي اسماً، فقرر أن أحمل جميع الأسماء؛ ترضيةً لهم.

تُرَى هل كنت لا أستحق التفكير في اسم واحد يميّزني؟ تكهنات لم يؤكدها أو يفنِّدها أحد لي.

أسماء، أو بنت مريم، كما كان يناديني أبي.

قالت لي جدتي: إنّ من يحمل طفولته معه لن يشيخ أبداً، فحملتُها معي.. وليتني ما فعلت!

كبقية الأطفال كنت جمّة النشاط، كثيرة الحركة، وكأن أمي كان ينقصها من ألوان الشقاء لون لأزيدها أنا لوناً جديداً بقلقها

عليّ، وتتبُّعها لي طوال الوقت، وكل ما يترتب على ذلك من تأخرها في واجباتها المنزلية، ومداراة والدي الذي كانت تفرط في الاهتمام به إفراطاً لا تفسير له، ولا تعليل.. فتركتني لجدتي ربما لتأمن شرّه.. كانت تخاف منه.. كنا جميعاً كذلك! رجل شرس الطباع لا يتورع عن استخدام كفّه.. فظّ الخُلق.

لقد كانت حيويتي تثير أعصابه، وتعكّر مزاجه، ولكنني لا أبالي لذلك، ولا أحفل به، كأيّ طفل لم يتجاوز السابعة من عمره، جلّ اهتمامه اللهو، طالما أنني لم أتجرع ويلات صفعاته وركلاته بعد.

* * *

«أسماء، أسماء..».

لا يكف الطبيب عن مناداتي..

اللعنة..

لقد وصلنا إلى المستشفى إذن.. فرص الموت تتضاءل، ومصيبتي تتفاقم.. أنا في كربة وغربة، لِمَ لا تتركونني لأموت؟ دعوني أضع حدّاً لكل هذا بهدوء.

أرجوكم.. دعوني أمُتْ بسلام.. متعبة أنا، والموت نهاية التعب.. أتوسّل إليكم.. أبعدوني عن هنا!

ولا أدري لماذا تبتعد الأصوات عني وأغيب فيما يشبه الظلام.. ظلام.

كانت جدتي تبعدني عن البيت كلما استطاعت، فصرتُ أرافقها معظم الوقت في كل مكان، ولم أمتعض أو أحتجّ، ففي رفقة الجدات حياة أخرى لا يعرفها إلا من جرّبها!

لقد كان لسوق السمك رائحة مميزة لم تزعجني أبداً، كما كانت تفعل محالّ الجزارة والدواجن التنتة بتلك الذبيحة المتأرجحة في الهواء، يتعلّق بها رأس خروف ينظر إليك بعينين زجاجيتين مخيفتين، يحرمك الوسن.. وصوت الدجاجة الجزعة قبل أن يقطع رأسها، ثم ينتف ريشها في حوض ماء ساخن!

في تلك الجولات كانت تتوارد عليّ الكثير من الأسئلة الطفولية عن الحياة والموت، أزعجتُ بها جدتي الحنونة.. كتلك الأسئلة:

هل يُعدُّ الموت نهاية الحياة أم جزءاً منها؟ أتنتهي العلاقات بانتهاء حياة أحدهم؟ ما معنى الحياة؟ وما طعم الموت؟

تستغفر جدتي الله سريعاً، وتستعيذ من الشيطان الرجيم، فالحديث عن الموت يزعجها، بل يخيفها، حتى إنها لا تسمح لي بالتفكير فيه، وتبقى قريحتي جائعة لم تشبع، لئلا يكون حديثي فأل شُؤم!

سوق السمك..

حيث نمضي أنا وجدتي التي كانت تعلمني بطريقة ما كيف أميز بين السمكة الطازجة وغيرها، وأن أفرّق السلطعون

الذكر من الأنثى، ولا أعرف كيف كانت بخبرتها تتعرف إلى الروبيان الكويتي من بين كومة زفرة؟!

تنتهي تلك الرحلة دائماً بالجلوس على صخور «النقعة» بمحاذاة البحر الذي أُحبّه.. حيث أُمسك بيدي اليمنى بوظة، اعتادتْ أن تشتريها لي في كل مرة، تذوب فتصبح حليباً دبقاً بارداً تتلاصق منه أصابعي، ويتسلل إلى كوعي. أما في يدي اليسرى فأمسك كسرات خبز، كانت قد جلبتها من المنزل معها، ولفتها في كيس، دسّته في حقيبتها، وسمكات الزوري المجنونة تلتهم ما يطفو على الماء بنهم شديد.

منظر تلك السمكات الجائعات كان يُثير بداخلي العديد من التساؤلات، ما إن أفكّر فيها، حتى يُقاطعني صوتُ جدتي، وهي تدندن ببحّة دافئة لحناً حزيناً لم أعرفه يوماً، يُثير القشعريرة في جسدي، فتنتبه لي، وتمسح بكفيها البضّتين على عضدي بحنان.

* * *

هزّات الطبيب الأحمق المتتالية تعيدني إلى وعيي.. مقيت جدّاً أن تُجبَر على الحياة! أنا أقبلت على الانتحار.. وما الانتحار إلا رسالة بأنني أعجز عن مجاراة الحياة. الحياة تحتاج إلى جرأة لعيشها، وأنا لست إلا إنسانة جبانة، ولا أستحقّ منكم إعادتي إلى ما أهرب منه وأخافه.. ألا تفهمون؟

لقـد حاولـت الانتحـار؛ لأننـي لا أريـد أن أعيـش.. حياتكـم هـذه لا أريدهـا.. فـلا ترغمونـي عليهـا!

أُغمض عينيّ، وأتمنّى ألا أفتحهما مرةً أخرى.

* * *

المشـوار مـع جدتـي إلـى أمجـد الخيـاط كان يأخـذ منحـى آخـر، فغالبـاً مـا كان ينتهـي بغضبهـا، ومشـاجرتها لـه؛ لعـدم إتقانـه للغـرز، أو لأن دوران الرقبـة لا يناسـبها، فلطالمـا كـررت عليـه:

«إنتَ خلاص كبرت وخرّفت يا أمجد».

ويكتفـي هـو بهـز رأسـه مبتسـماً، بينمـا كان يكفهـرّ وجهـه عندمـا كانـت تُهـدِّده وتتوعّـده:

«يـا ويلـك لـو خربـت القمـاش يـا أمجـد.. راح أطلـع فلوسـه مـن عيونـك».

سألتها مرة:

«لمـاذا تُصريـن علـى أن يخيـط لـك ثيابـك، بعـد أن شـاخ، وفقـد دقّتـه ومهارتـه؟».

أجابت في هدوء:

«عنـدي بـدال الثـوب ثيـاب.. بـس هـو عنـده كـوم لحـم، وراه عيـال وصبيـان.. لازم يوكلهـم».

لـم أفهـم تمامـاً حاجـة أمجـد إلـى مسـاعدين، فهـو خيـاط بسـيط، وزبائنـه معـدودون مخلصـون، يتعاملـون معـه منذ عشـرين عامـاً، كمـا أن العمـل خفيـف، لا يسـتدعي طلـب العـون، فتبـرر جدتـي لـي بـأن الفقـراء هـم أكثـر النـاس كرمـاً، يفضلـون اقتسـام اللقمـة مـع الآخريـن؛ ليمنعـوا تكـرار مـا عانـوا منـه فـي حياتهـم..

علـى الرغـم مـن أنها كانـت منهـم، إلا أنها كانـت غنيـة بقناعتها مكتفيـة، ولطالمـا بكـت الفقـراء، هـي تظـن أن القـدر جعـل منهـم أداة تعمـل بـلا هـوادة؛ لإنهـاء مصالـح الأغنيـاء، أولئـك الذيـن ينامـون مـلء جفونهـم طـوال الليـل يحلمـون، وعلـى الفقـراء العمـل علـى تحقيـق تلـك الأحـلام!

تعطيـه جدتـي (الحـلاوة)، فتزيـد بضعـة دنانيـر علـى ثمـن الملابـس عندمـا تسـتلمها، هـو يعتقـد أنـه أجـاد العمـل، فيتباهـى أمـام صبيانـه فـي المحـل، وربمـا يشـتري لهـم الحلـوى الرخيصة، ويلقـي عليهـم محاضـرة تشـجّعهم علـى العمـل بحـرص والتـزام.

فـي حيـن تعتقـد هـي أنهـا تشـتري منـه موافقتـه بهـذه الحـلاوة، وبعـض أكيـاس الأرز الفائضـة والعـدس، وتنـكات الزيـت، علـى أن يأخـذ طلباتهـا التـي كانـت غالبـاً مـا تطلبهـا فـي أوقـات حرجـة، لا يقبلهـا منهـا غيـره؛ كمواسـم الأعيـاد مثـلاً.. شـطارة!

بينمـا أنـا أعتقـد أنهـا تُكفّـر عـن قسـوتها عليـه، وترضيـه.. دمثـة.. طيبـة جدتـي، تعجـز عـن النـوم إذا مـا ضايقـت أحـداً.. لا

أحـد يعرفهـا مثلمـا أعرفهـا.

الفقراء يوحّدهم الألم، وتجمعهم الحاجة..

* * *

«أسماء.. تعرفينني؟»

لا أعـرف هـذا الصـوت، ومـن تـراه يسـألني فـي مثـل هـذه الظـروف إن كنـت أعرفـه أم لا؟

أفتـح عينـي.. بصعوبـة.. لا أزال فـي غرفـة الإنعـاش، أحـاول أن أتعـرّف إلـى السـائل.

ترى أي أحمق منهم سألني؟

لا أتعرف على أيهم.. أغمض عينيّ.

* * *

«أسماء، يمّه، تعرفينني؟»

تسـألني العجـوز عـن اسـمها، ومـا إن أذكـره حتـى تمطرنـي بوابـل مـن القُبـلات الرطبـة، فتغـرق وجنتي ببصاقهـا الـذي أمسـحه بسـرعة، بكـف يـدي الصغيـرة.. ومـا تلبـث أن تأتيني صورتهـا غائمة وهـي تعطينـي حلـوى دافئـة، كانـت قـد خبّأتهـا مـع بعـض النقـود فـي ثيابهـا الداخليـة، تحـت ثديهـا.. خزنـة الجـدات السـرية!

كنـت أعـرف صديقـات جدتـي جيـداً؛ لأننـي كنـت أزورهـن

رفقتها، وألعب مع أحفادهنّ، وبالفعل أحببت أوقاتي معهن، مع المسنّات اللاتي تفوح منهن عطور تمسّ قلبي، وكم حلا لي أن أهمس في نفسي: كم أحبّ هذه العطور الدافئة؟

روائح تفضي إلى السكينة والطمأنينة، خليط من روائح المشموم، دهن العود، البخور والحناء، ثم بحّة صوت، ولسان عبق بذكر الله.

رفقة العجائز تُنعش روحي.

فهذه تثني على جمال ملامحي ولون شعري وصفاء بشرتي، فيدغدغ مدحهن روحي، وتطرب له، فأختال بين الأطفال، وكأنني قد تُوّجت ملكة جمال، وأصدقها ببلاهة، وكأن من مدحتني لم يسلب مرض السكري منها الكثير من بصرها! وتلك تطعمني من كل ما تقدمه للحاضرات، حتى تخنقني التخمة.. كجميع الجدات هن لا يرين من الأحفاد إلا كومة عظام، مهما كانت أحجامهم وأوزانهم، فيأخذن على عاتقهن كسوها باللحم والشحم، وإلا شككن بعطائهن ومحبتهن.

أما الأخريات فهنّ يشفقن عليّ وعلى والدتي، دون أن أعلم السبب، ولم أسعَ لأعلم ما السبب، فما يهمني أن أرافق جدتي، تاركة والدي يسوم أمي سوء العذاب!

* * *

يـا للعـذاب! أشـعر بأنبـوب بلاسـتيكي يقحمـه الطبيـب فـي أنفـي، وكأنـه يختـرق المـريء فـي طريقـه إلـى معدتـي.. يـا اللـه لِـمَ لا أمـوت وأرتـاح مـن هـذا الطبيـب؟ يـا طبيـب، لـم تكـن لحظـة انتحـاري لحظـة عبثيـة مجنونـة.

دعني وشأني.. أنا لا أستحق ذلك. لا تكن شريراً.

كان والـدي شـريراً وقاسـياً، مكفهـرّ الوجـه، سـريع الغضـب، قاسـي القلـب، فظّـاً لأمـر مـا لا أعرفـه، ولكننـي أجـده يلقـي علـى عاتـق أمـي كل مـا يلقـى مـن ضـروب الإخفـاق فـي حياتـه، وكل مـا يعانيـه فـي وظيفتـه، وحتـى فـي علاقاتـه الاجتماعيـة التـي كانـت تتداعـى لسـوء أخلاقـه.

كانـت مريـم تخافـه.. مريـع أن تخـاف المـرأة مـن الرجـل الذي مـن المفتـرض أن تسـتوطنه، وأن تأمـن العالـم رفقتـه، وتحـارب مـا تحـارب لأجلـه، غيـر آبهـة بـأي شـيء فقـط؛ لأنـه خلفهـا، يحميهـا ويعتنـي بهـا، يحتضـن روحهـا ويؤازرهـا. غيـر معقـول أن تخـاف المـرأة مـن الرجـل الـذي عليهـا أن توقـن بأنهـا بصحبتـه لـن يضرهـا شـيء، فتتوسّـد صـدره بضعـف تسـتمدّ منـه قوتهـا. مؤسـف ألا يفكّـر الرجـل إلا فـي الهيمنـة علـى الأنثـى التـي عليـه أن يسـكنها، يكملهـا ويحتويهـا، ولا يحفـل إلا بـأن يسـيطر علـى حياتهـا، عوضـاً عـن أن يشـاركها حياتـه!

جدتي كانت تقول:

«الرجل أمان للمرأة، والمرأة أمانة للرجل».

كانت نظرة واحدة من عينيه تقطع نفس أمي، فلا تنبس ببنت شفة، وتبتلع كلماتها كأمواس تشق روحها، وتجرح ذاتها؛ لذا كانت شديدة الحذر، فهي تعيش تحت رحمة إنسان يعجز عن تقديرها حق قدرها.

والدتي كانت جميلة بحق.. ربما كان والدي يخاف من جمالها أن يأسره، فيخضع لها ويرضخ فتروضه، أو ربما يخاف أن تفتن رجلاً آخر، وينتزعها من بين يديه الظالمة، لذا أمرها بلبس النقاب.. تنقبت فزادها النقاب فتنة!

تقول جدتي:

«الرجل إذا أحبّ امرأة أخفاها.. خوفاً من أن يسرقها غيره، والمرأة إذا أحبّت رجلاً جاهرتْ به لئلا يحاول أحد الاقتراب منه».

بالنقاب الأسود ازدادت عيناها اللوزيتان زُرقة مثيرة لم تسترها أهدابها الطويلة، حتى صار من يلمحها مشدوهاً بحسنها.. ثار والدي وانهال عليها ضرباً! فأمرها بالخمار فوق غطاء الوجه، فامتثلتْ. فوجد يديها تصرخ بياضاً ونعومة، جنّ جنونه وهددها بأنه سوف يحرق كفيها إن لم ترتدِ قفازات سوداء تغطي أصابعها اللطيفة، فارتدتها!

فشدّته قدمها وكعب رجلها البضّ، فأقسم أن يشوهها إن لم تغطِّها بالجوارب السميكة...

فغطّتها!

ومع ذلك كانت أمي مريم تزهو عن بقية النساء، تثير حنقه باختلاف ملامحها ولونها عن الأخريات من حولها، بل إنها كانت تفوق والدي طولاً؛ لذا لم يمشِ إلى جانبها. صارت تمشي من خلفه، وتتعثر في طريقها الذي يحجبه الخمار.. وأخيراً لم تخرج معه أبداً!

* * *

تمسك بي الممرضة وأنا مستسلمة لها ضعيفة بين يديها، تمسح على ظهري بقوة من الأسفل إلى الأعلى.. أستفرغ عليها بلا حول مني ولا قوة، فتخفّف عني قائلة:

«أخرجي ما في معدتكِ يا أسماء.. استفرغي!».

أفتح عينيّ بصعوبة، وأتقيأ مرة أخرى، غريب كيف لا يمهلني الاستفراغ أن أتنفس، حاولت أن أمنع نفسي، وأن أتوقف، ثم وضعت يدي جاهدة أمام فمي؛ لأمنع ما يحدث، ولكن التدفق يغلبني بقوته.. لو سَدَدْتُ ثغري لتفجر القيء من أنفي! أختنق بمشاعر الخزي.

إنهم يغسلون معدتي فيُخرجون كل ما ابتلعت، عليهم اللعنة، نجحوا في إفشال محاولتي الانتحار، بفضلهم أخفقت في الارتحال.. لن أموت كما كنت آمل.

قيء أسود اللون ذو رائحة غريبة.. الطبيب ضخ سائل الفحم الأسود في الأنبوب إلى معدتي ليهيجها.. ليثير

جنونهـا، فتطـرد كل مـا بهـا.. ثـم ضـخ مـاء بهـا، وشـفطه دون أن يحتـرم رغبتـي فـي المـوت!

التقيُّؤ زادنـي إعيـاء.. فقـدت الإحسـاس بمـا حولـي.. العـرق البـارد يبللني.. غمامـة تمـر فـوق عينـي، شـيء مـا يشـبه الظـلام!

* * *

كأن للظلمـة لونـاً جديـداً.. بـل الليالـي فـي بيـت جـدي لأمـي أجواؤهـا مختلفـة.. هـدوء مـن نـوع آخـر.. مشـاعر لـم آلفهـا! الجـو كان خانقـاً يـوم تركنـا الكويـت فـي أغسـطس 1990، تركنـا الكويـت حينهـا مُجبَـرين. لقـد كانـت المـرة الأولـى لـكل شـيء: الرحيـل عـن الوطـن، السـفر بـرّاً، وأخيـراً لقـاء عائلـة والدتـي!

أذكـر ذلـك جيـداً، فقـد بقيـتُ أغالـب النعـاس طـوال الطريـق فـي سـيارة خالـد المكتظـة بنـا، وبأمتعتنـا ومشـاعرنا.. حيـرة، خـوف، صدمـة، غضـب. وأذكـر نحيـب جدتـي الـذي كان يرتفـع كلمـا ابتعدنـا عـن حـدود الكويـت:

«أرجعونـي إلـى الكويـت.. أرجعـوا لـي روحـي التـي غرقـت فـي بحـر الكويـت، وتشـبّثت فـي نخيلهـا.. لا أريـد المـوت فـي أرض ليسـت أرضـي.. عـودوا بـي إلـى الوطـن».

أتذكّـر كذلك فرحة مريم بلقاء والديها!

لسـبب أجهلـه تعـودت أن أنـادي أمـي بمريـم.. أقولـه وكأنـه الأقـرب لروحـي، كأنـي أتكلـم عـن امـرأة أخـرى، وكان الأمـر

مقبولاً عندها، فهي لم تكن أبداً فخورة بزواجها المبكر، ولا سعيدة بلقب الأم.

تعرفت في ذاك الصيف إلى أسرة والدتي التي كانت تحلق بين أفراد عائلتها كالفراشة المختالة؛ تضحك تارة، وترقص تارة أخرى.. لم تكن مريم التي أعرفها، وكأن الفرحة لا تليق بها، ولم تخلق لأجلها!

صعقت بأمي، بروحها الطيبة، شخصيتها المرحة، وحتى مزاجها الجميل بينهم، لا تزال ضحكتها العذبة ترنّ في أذني، وكأنها قهقهت البارحة، وأكاد أجزم أنها كانت آخر مرة تقهقه فيها والدتي!

شهور مضت ونحن ضيوف جدي.

نستمتع بالأجواء المختلفة، أهمها بالنسبة لي النسيم العليل، عناقيد العنب التي يقطفها جدي بيديه كل صباح، وكأس من عصير التوت الطازج الذي تعده جدتي لي من التوت المتدلّي من شجيرات بيتها، ثم مباراة الطبخ بين الجدتين: أم مريم وأم خالد، تلك تتفنن في إعداد الكبب والصفائح الشهية، والأخرى تبهرهم بـ «المرقوقة» و«الجريش» اللذيذ.

كم أحببت التلاحم بينهم، وكأننا أسرة واحدة كبيرة تجمعنا روابط أهم من رابطة الدم.. الدين، العروبة، التاريخ، الثقافة. كان والدي صامتاً على غير عادته هادئاً.. جُلّ ما يفعله البحلقة في شاشات التلفزيون، والبحث عن الأخبار، والمزيد من الأخبار.. أخبار الحرب، العائلة، الأصدقاء،

الجيران، وما علمت أبداً هل كان مشغولاً حقّاً أم يتشاغل؛ ليتجنب ملامة من يحسنون له، ويسيء هو بدوره لابنتهم، أو ليتغلب على تأنيب الضمير؛ لأنه ترك الكويت، ولم يصمد مع الآلاف من شبابها.. في الحقيقة لم يهمني أن أعلم؛ لأن حالته هذه كانت مناسبة جدّاً للظروف التي نمر بها.. انشغاله عنا خيرٌ لنا.. أخيراً تنفسنا الصعداء.

أحببت مكاني الجديد، وتأقلمت معه، على الرغم من أننا حشرنا جميعاً في غرفتين اثنتين فقط، وتمنيت لو مضى العمر هناك في بيت الجد البسيط.. نعيش معهم وبينهم، حتى قُضيت الحرب، وانتهت بعد سبعة أشهر عصيبة، وحانت لحظة العودة إلى الوطن، وما أغربها من لحظة!

تناقض كبير شق صدري يومها..

نعم، تمنيت البقاء معهم، ولكن كل ما بي كان يرقص فرحاً بفرحة جدتي، لقد تأثّرَت أشد التأثر عندما أخبرها خالد بتحرير الكويت، فخرّتْ على الأرض ساجدة حامدة شاكرة، ثم قامت واحتضنتني بقوة، وهي تزغرد وتقفز في مكانها كالأطفال.

كنت أتوق للعودة إلى البيت لألعابي، لمدرستي وبنات الحي، إلا أنني فقدتُ ذاك الحماس، وذاك الشوق، عندما رأيت حالة مريم.. تلك الفراشة في لحظة انفصلت أجنحتها، وانطفأتْ عيناها، تبدّلت ابتسامتها، وشحب لونها.

تبعتها مكسورة، تجرّ أقدامها جرّاً، فسمعتها خلسة تتوسّل جدي أن تبقى معهم.. كانت تستحلفه بالله أن يضمّها لإخوتها.. ترجوه أن يسمح لها بالعيش في بيته، عوضاً عن الغربة برفقة خالد، بل إنها كانت ترغّبه وتغريه بأنها موافقة على العمل خادمة في بيوت الناس؛ لتنفق عليهم، وعلى نفسها، فلا تثقل كاهلهم، ولا تزيدهم فقراً، وما سمعتُ ردّه أبداً، ما سمعت إلا بكاءً، ولم أعلم من بكى حينها، مريم أم أحد والديها.. ربما بكى الجميع معاً!

بقيت طوال الطريق إلى الكويت أراقب حزنها، وكلما نظرتُ لها طفر سؤال يضايقني.. لم آثرت البقاء على العودة؟ وكيف لها أن تتخلى عن عائلتها الصغيرة، وأهل بيتها؟ لماذا سهل عليها أن تعمل خادمة من أن تعيش معنا؟! أي مذلّة تلك التي ترتضيها لنفسها؟ وكيف لها أن تحتملها؛ لئلا ترجع برفقتنا؟ هل أنا السبب؟ والأهم: مريم كيف هنتُ عليكِ؟

* * *

«أهون عليك يا أسماء؟ لا تتركيني يا ابنتي.. لا تتركيني غريبة ووحيدة».

يصل إلى مسامعي صوت مريم من مكان ما.. أحاول أن أعرف أين هي في غياهب الظلام، ولكنني لا أقوى على فتح عينيّ.. بل حتى على استعادة وعيي!

فأفقده مرة أخرى..

كنت في الثامنة من عمري، طفلة طويلة القامة والجدائل. حدثتني حينها جدتي عن أن قدر المرأة في المطبخ، وهي تفرد العجين، ثم تمسح قطرات العرق التي استحلت جبينها بثيابها.. كان لذاك العرق رائحة طيبة تنافس رائحة الرغيف الساخن بعد أن يخرج من التنور الجيري الذي كانت تخبز فيه كل صباح. لازلت أتذكّر صوتها المبحوح، وأنا ألعب بكرة العجين، أدعكها بأصابعي الصغيرة، أُشكّلها وهي تقول:

«الرسول محمد عليه الصلاة والسلام يا طفلتي، وصى بالنساء خيراً، الحمد لله الذي جعلنا مسلمين».

أنظر إلى جدتي وعلى لساني سؤال آثرت ابتلاعه.. وضعت كرة العجين على الطاولة، ولا زلت أفكّر.. إن كان الإسلام قدّر المرأة وكرّمها، فلماذا لا يتقي خالدٌ ربّه في أمي؟

* * *

«اتقي الله في نفسك يا بنتي».

صوت صرير عجلات مزعج يفيقني رغماً عني، أفتح عينيّ بصعوبة، فأبصر ممرضة عربية.. تقف فوق رأسي، ضخمة البنية، تدفع بالسرير وأنا مضطجعة عليه، تلهث وهي تصرخ:

«افتحي عينيك يا حبيبتي.. لماذا يا بنتي؟».

من الجسارة أن تتدخل في ما لا يعنيك، ومن الوقاحة أن

تسأل عما لا يخصّك، وبالتحديد عندما لا أقوى على الرد.. هي تسألني معاتبة، وأود أن أجيبها، لكنني أشعر بالوهن والضعف، «يا بنتي لو مِتِّ، لكنتِ في جهنم الآن».

لا تزال الممرضة تزعجني.. هي ترى أنها تتعاطف معي، وأنا أرى أنها تتطفّل عليّ!

ليتها تعرف ما دفعني إلى القفز للهاوية، وما المشاعر التي طفحت مني تريد إنهاء كل شيء؟ وكيف استطعت أن أقرر الموت بشجاعة؟ وكم يُحزنني أنهم لم يسمحوا لي بالارتطام بالموت؟!

«الصبر يا بنت.. من منا لا يتوجّع؟ الصبر يا أسماء باب من أبواب الجنة.. باب الصابرين».

في معمعة حياتي ضاعت مني حسبة السنوات.. كم بقيتُ صابرة، حتى ما عدت أطيق البقاء على قيد الحياة.

على ذاك السرير أنتقل إلى غرفة في أحد الأجنحة، تتنازعني مشاعر شتى.. ربما شتمت الممرضة بصوت لم أسمعه بنفسي، وربما زجرتها، ولكن ما فطنت للزجر إلا أذني.. لم أقوَ على شيء، حتى إنني عندما حاولت سحب اللحاف على وجهي، دار رأسي مع زوبعة من الذكريات الرهيبة، وغلبني النعاس.

* * *

كنت في التاسعة من عمري عندما منعتني جدتي من اللعب في الحي، مع الصبية!

تنتشل بالقوة لهوَ الطفولة من قارعة الطريق.. مجحفة جدتي جدّاً في حقي، فأنا من جيل بسيط قنوع لم يحظَ بما يسليه من التكنولوجيا إلا نادراً، جيل يعتمد على حواسه وحركته وعضلاته في اللعب، جيل تطربه أناشيد المدرسة.. جيل الثمانينات الذي عاصر أصالة الماضي، وواكب التطور التكنولوجي الهائل السريع، وهو لا يزال شابّاً.

أتذكر كيف كنت أتسمّر صباحاً بعينين منتفختين أمام شاشة التلفاز، أقرأ أسماء الصيدليات المناوبة في انتظار افتتاح برامج اليوم؛ لأستمتع بدقائق معدودة من الرسوم المتحركة القديمة.. أفرح بأقل مباهج الحياة، وأقنع بها.

أرسم بالقلم ساعة على معصمي، وأتظاهر بأنها تدقّ، أمد خيطاً بين علبتي عصير فارغتين، وأستخدمهما كهاتف، أجمع الملصقات المجانية التي تأتي مع بسكويت الشمعدان، وألصقها على الثلاجة، الأبواب، وجدران البيت، معرّضة نفسي للتأنيب والتوبيخ.

أحاول أن أجمع أغطية قناني المشروبات الغازية من الجميع؛ لأفوز بدرّاجة هوائية حمراء اللون، أربط بها معلبات فارغة تصدر ضجيجاً محبَّباً إلى قلبي بحركتها.

كنت أطل على العالم من خلال مجلتي «ماجد» و«ميكي»، وأتعلّم اللغة العربية، وجدول الضرب من برنامجي «المناهل»، و«افتح يا سمسم»!

حنقت على جدتي، ولم أتفهّم ما تجبرني عليه، استصعبت الأمر بشدة، حتى إنني صرت أبتعد عنها منطوية على غضبي منها، ربما تشعر به، فتعيد الأمور إلى مسارها كيفما كانت، وأرجع إلى اللعب مع أبناء الحي، فيعمّ الفرح من جديد، ولكن هيهات.

تكدرت منها، وكلما طلبت مني شيئاً تعللت بأمر ما كي لا ألبّيه، تكلمني فلا أبادلها أطراف الحديث.. تتودّد لي باللذائذ، وتطعمني بيدها ما أحب، فأبتلع اللقمة متحاشية النظر لها، ويدور السؤال برأسي:

«لماذا تبعدني عن الأطفال، وتحرمني من اللعب؟».

تمسح على رأسي بحب، تتناقض مشاعري، فأهرب منها، تهديني لعبة، أختطفها من بين يديها، أبتعد عنها، أحتضن اللعبة وأبكيها.. ضاقت روحي وتضايقت!

اشتقت لها.. اشتقت لجدتي.

لرائحتها.. لحنانها.. لحكاياتها.. لبحة صوتها عندما تدندن.. ذاك السكون الذي تستلذ به روحي بالقرب منها، وللأسف الغضب كان أكبر مني، فطال بيننا الجفاء.

وما احتملته بعنادي الطفولي لم تقوَ عليه جدتي.. ففي ظهيرة أحد الأيام وجدتها تنتظرني في الشارع، والشمس تصفع خدها الذابل، فتلونه بحمرة محتقنة.

رأيتها تقف في الشارع حالما دخل باص المدرسة إلى

الحي وخفت، اعتقدت أن أمراً سيئاً قد حدث لأحدهم في غيابي.. فحملت حقيبتي الكبيرة في لحظة، وأنا التي كنت أشتكي دائماً من ثقلها، ونزلت من الباص.

اقتربت منها قلقة، فإذا بها تحتضنني بقوة، عصرتني وسط عضديها، وضمتني إلى صدرها بقوة، حتى شعرت بعظامها:

«ولهت عليج يا بعد طوايفي.. يا نظر عيني.. يا الأسمى».

الأسمى.. هكذا كانت تسميني، وكم كان وقع هذا الاسم لطيفاً على روحي.. يرضيني ويغنيني عن جميع الأسماء، وبالذات أسماء!

وأنا في حضنها سالت دمعتها، وهبطت على خدي.. فصعقت وكانت دمعتها كفيلة بإذابة جبال الجليد التي جمّدت أحاسيسي لأيام.

شهقت مختنقة ببكائي، حتى إنها أشفقت علي، ومسحت وجهي الصغير بعباءتها العطرة، قبّلتني، وسمّت علي، ثم حملت حقيبتي عني، ودخلنا معاً إلى المنزل.. عادت المياه إلى مجاريها، وحتى لا يبقى سبب المنع من اللعب مجهولاً يغبنني، أفصحت عنه في عصرية ذاك اليوم.

كنتُ قد جلستُ القرفصاء على الأرض في غرفتها ألعب بالدمى، وهي تجلس من خلفي تضع الحناء في شعري، تدندن كعادتها بكلمات لا أفهمها، لكن ببحة أعشق رنينها في أذني، أتمنّى ألا تتوقف أبداً، وبررت لي قائلة:

«أنت عنقاء، سرعوفة، وأخاف عليك من أولاد الحرام».

وما فهمت ما تقصد حينها، فالتفتُّ ناحيتها؛ لأسألها ماذا تقصد؟ وإذا بها تجرّ خصلة من شعري جرّة موجعة ألجمت لساني عن السؤال، وأكملت هي تلطيخ شعري بالحناء، وأكملت لي بنفس النبرة:

«يجب أن أخاف عليك فأنت بنت لدنة، ممشوقة وهيفاء، لن يصدق أحد أنك طفلة!».

فهمتُ منها أن جسمي يبدو أكبر حجماً من أقراني، وأطول منهم، ولكنني لم أفهم علاقة جسدي باللعب مع الأولاد.

قطعتُ حبل أفكاري عندما سحبتْ جدتي قبضة يدي، ودسّت بها قصعة من الحناء، فأقرّب يدي إلى أنفي، وأستنشق رائحة الحناء مع الريحان، كما كانت جدتي تحب أن تعجنها، تنظر إليّ وأنا منتشية بتلك الرائحة التي أحب، فتقول لي باستحسان:

«رعبوبة، مملودة.. كوالدتك».

* * *

أفتح عينيّ، الرؤية ضبابية. أشمّ رائحة الكحول والمعقمات الطبية.. إذ لا أزال في المستشفى.. اللعنة.. فشلت محاولتي، وأبَت الروح التي أنوي إزهاقها أن تصعد.. يا لحظّي العاثر، ما نجحت في شيء قط، وأقسم أنني لو كنتُ حذرة أشد الحذر،

للويت كاحلي، وكسرت رقبتي، لمتُّ بطريقة غير معقولة أو منطقية، يتحدث بها الناس طويلاً، لكن عندما أبحث عن الموت لا أجده.. عليّ أن أجد طريقة أخرى في أقرب فرصة!

يتشكل أمامي ببطء جسم ما.. أسود اللون، فأغمض عينيّ وأفتحهما عدة مرات، لكن لا تنجلي الغمامة، أضيّق عيني، أحاول أن أتبيّن ماهية الكائن الذي يجلس أمامي ساكناً صامتاً.. أجدها مريم، فأشيح ببصري عنها، لا أريد أن أراها، ولا حتى أن أسمع صوتها فآمرها:

«اخرجي».

ترمي بنفسها عليّ باكية متوسّلة، فأدفعها بحقد، ولا أعلم من أين جاءتني القوة لذلك، ولكنها استنفدت طاقتي.. أشعر بالتعب.. أغمض عينيّ.

آخر ما أتذكره هو ألم ينهشني.

* * *

أتذكر آلام أمعائي في عصر يوم من أيام صيف عام 1993، عندما كنت في العاشرة من عمري، وقد أكلت الكثير من الموز العماني.. خدعت بضآلة حجمه، وحلاوة طعمه، فالتهمت واحدة تلو الأخرى بلا حساب!

شعرت بالتوعُّك والمغص الشديد بسبب الموز، وصرت أبحث عن جدتي لأشكو لها حالتي، لابد أنها تعلم ما علتي

وما علاجي. فهي ضليعة في الأعشاب، وإن لم تعطني دواءً، فيكفيني أن تمسح على بطني، وهي تقرأ المعوذتين ببحّتها السحرية، لأشعر بالتحسن!

لم أعثر عليها في البيت، فطفقت أبحث عنها في الحوش بخطوات ملتوية ثقيلة، حتى وصلت إلى ملحق المنزل، وهو عبارة عن مبنى صغير قديم، مكون من غرفتين وحمام ضيق، كانت جدتي قد خصصت الملحق للعاملات المنزليات، ولأننا لم نستقدم إحداهن كان مهجوراً، وبالطبع محظوراً.

ولأن كل ممنوع مرغوب، فلطالما رغبتُ في استكشافه، ولكنني فزعتُ، ماذا لو صدقت قصص خالد عن الجن، والتي دأب على تخويفي بها لأنام مبكراً؟ وأمام الملحق وقعتُ في حيرة من أمري، أتوق لاستطلاعه، لكنني أخشاه!

صوت ما يصل إلى مسامعي، فيقشعرّ جسدي.. أهمّ بالهروب، وإذا بي أسمع صراخ مريم!

أمي تصرخ داخل الملحق المهجور؟ اشتدت الحيرة وكبرت، ترى ما الذي يجعل أمي تثير جلبة في هذا المكان، وفي هذا الوقت؟ ماذا لو كان الجن يخدعني، فيصدر صوتاً يشبه صوت أمي لاستدراجي؟ هل هذا صوت أبي؟

هذا صوت خالد، أسمعه يأتي من المكان نفسه.. إذن والداي في الملحق معاً ويصرخان! اقتربتُ من الملحق في رهبة، وكل ما بي يرتعش رعباً، رعشة ريشة تطير في مهب

الريح، لن أدخل قطعاً، فلم أتأكد بعد من وجودهما، وبدأتُ أبحث عن أي فجوة أستطيع من خلالها استراق النظر إلى داخل الملحق، وأثناء ذلك سمعتهم.. سمعت خالداً يسأل والدتي في غضب:

«حبوب منع حمل يا وضيعة؟ ألا تريدين أطفالاً يربطونكِ بي؟».

ترد عليه مريم في تَحدٍّ، وبلا خوف:

«لا أريد إنجاب طفل آخر من منحرف مثلك».

صوت صرخة، تسبقها صفعة، وتلحق بها شهقتي.. ثم يتّهمها في شرفها قائلاً:

«مؤكَّد أنك تخافين الحمل من عشيق ما».

تطلب منه بنفس القوة:

«أرجعني إلى أهلي يا فاسد، لا أريد الحياة معك.. حتى ابنتك خذها لا أريدها».

يصرّ أسنانه، ويردّ عليها في قهر:

«سترجعين لهم، أنت لا تستحقين إلا الجوع والمرض والموت هناك.. حتماً سأتخلّص منكِ، فكل ما يتعلق بك مقزِّز.. ولكنك سترجعين وأنتِ ملفوفة في كفن!».

* * *

ارتفع صراخها عالياً مخيفاً، ومن عويلها وضجيجها عرفت أنه انكبّ عليها يضربها بوحشية... الحمد لله أنني لم أرَ ما يحدث في الداخل، ولكن ما سمعته كان كافياً ليجعلني أتبوّل في ثيابي وأنا واقفة هناك.

وبقي في غياهب ذاكرتي ذاك اليوم بكل الكدمات التي استحلّت جسدها الضئيل، تلك الكدمات الملونة التي خلفتها لكمات ورفسات والدي الذي لم يرحم ضعفها، ولم يرأف لحالها. انهال القاسي عليها ضرباً وجلداً بخرطوم المياه، حتى إنه كسر لها سناً من أسنانها وإصبعاً من أصابعها!

نحيب مريم يرنّ في أذنيّ حتى الآن، نحيب مريم فتك بي.

* * *

نحيب مريم يقضّ مضجعي. أفتح عينيّ وأراها، لا زالت أمي في عيني هلامية الشكل، فأكتفي منزعجة بـ:

«شششششش».

تصمت مجبرة.. تبتلع غُصّتها، ثم تلطم خديها!

لطمة تلو الأخرى. تجلد نفسها بقوة. فأنام، وكأن شيئاً لم يحدث.

كنت في الحادية عشرة من عمري عندما شاهدت أمي تُضرَب للمرة الأولى! في ذاك اليوم كنت للتوِّ قد وصلت إلى المنزل بعد اختبار الرياضيات، أذكر أنني تركت سؤالاً

أو سؤالين بلا إجابة.. فلا أحد يدرّسني أو يراجع معي في المنزل ما أتعلمه في المدرسة، فما أتعلمه بمفردي أقدمه، بناء على ذاكرتي وفهمي، وهذا ما ضايقني وأزعجني.

كنت في مزاج سيئ لا يتناسب مع يوم الأربعاء. كانت إجازة نهاية الأسبوع في فترة الامتحانات تبتدئ من يوم الأربعاء، وتنتهي يوم الجمعة، فنعود إلى مقاعد المدرسة في يوم السبت من كل أسبوع، وفي موسم الاختبارات يتقلّص اليوم الدراسي إلى ساعتين فقط؛ بغية الدراسة والاستعداد للاختبارات الأخرى.

في ذاك الأربعاء، وجدت أمي تمشي في الحوش ذهاباً وإياباً، وهي تلطم وتضرب وجهها بشكل، لسبب ما بدا لي مُضحكاً، حتى احمرّت وجنتاها، وتورّمتا.

لم تنتبه مريم كعادتها لوجودي، وانشغلت في ندب حظها، وضرب نفسها، وبقيتُ أراقب الموقف الغريب من بعيد، وإذا بجدتي تركض إليها وهي جزعة.. ملامح الحنونة تختلف.

هنا فقط انتابني شعور مزعج، فعندما تعبس جدتي أمام ناظري تضيق الدنيا في عينيّ! بدأتُ أقترب منهما بهدوء، أحاول أن أفهم ما يدور بينهما، أمي منهارة، وجدتي خائفة تحاول تهدئتها قائلة:

«تماسكي يا مريم، سأسرع إلى العطار.. تنقصني بعض الأعشاب».

تضرب مريم على فخذيها في حسرة، وتسأل:

«وهل ستقدر أدوية العطار على إنزاله؟».

تعدّ جدتي على أصابعها:

«عشبة كف مريم، مع الكثير من القرنفل والقرفة...».

تقاطعها أمي في غضب، وهي تمسك بطنها:

«هذا جنين.. جنين يا خالة..».

ثم تلكم مريم بطنها لكمة قوية، ولم تتوجع، وأكملت شاهقة باكية:

«جنين من لحم ودم، أتقدر عليه الأعشاب؟».

بصوت هادئ تقول لها جدتي:

«سنجرب العنزروت، الرشاد، عشبة المدينة، والسذاب، كل ما هو متوافر ومتاح، حتى ينزل الجنين».

تهز أمي رأسها بالنفي بعنف، فتصمت جدتي، وبصوت مريب تقول لها مريم:

«سِمّ يا خالة».

ضربت جدتي على صدرها مرعوبة، وهزّت رأسها بالنفي، وأكملت أمي بهيسترية:

«سمّ.. فإن لم أتخلص من هذا الحمل.. آتيني بسم قاتل، حتى أرتاح؛ يموت الطفل، وأموت معه، وينتهي كل شيء!».

تراءى شبح الموت أمامي، فما قدرتْ رُكبتاي على حملي، ووقعتُ عليهما.. هنا فقط انتبهتا لوجودي، فدلفت أمي إلى داخل المنزل، غير آبهة بي، في حين استجوبتني جدتي في لطف، وحاولتْ أن تتأكد مما سمعتُ منهما، ولكنني التزمتُ الصمت رغماً عني، فلوهلة ارتعبتُ منهما، في نظري كانتا قاتلتين!

كانتا بالنسبة إليّ مجرمتين تخططان لقتل الطفل الذي لطالما حسدتُ الآخرين عليه، ولطالما بكيتُ وحدتي عندما كنتُ أشاهد إخوة يلعبون مع بعضهم بعضاً.. ذاك الطفل كان دعوتي إلى الله قبل أن أنام، وهما الآن يسلبانه مني!

كنت أتمنّى وجوده ليشاركني حياتي، وراضية به، وإن كان خلق لينغصها عليّ، ليُقاسمني حبّ جدتي، والديّ، غرفتي، وحتى ألعابي، وليبني معي ذكريات أعيشها بحلوها ومرّها.. سيقتلان أختي الصغيرة التي أتخيلها تلهو وترقص معي.. تشدّ من أزري وتخفّف عني، تضحك معي وتمسح دمعتي.. تلك الأخت التي كنت أرسمها في كراستي، وأحكي عنها قصصاً ومغامرات لم ولن تحدث أبداً!

في تلك الليلة بعد أن تأكدت جدتي أن خالداً لن يسهر في البيت أعدت مشروباً ساخناً رائحته غريبة، لم تزل معدتي وبعد سنوات طويلة تتلبّك وتتمغص عندما أتذكرها! لكن، يبدو أن ما تقومان به مدروس بدقة وترتيب.

مريـم كانـت تشـرب المشـروب الخبيـث السـاخن بنهـم، وكأنهـا لا ترتـوي منـه أبـداً، حتـى فـرغ كل مـا فـي القـدر.. وأنـا أنظـر لهـا متعجبـة!

يـا لغرابـة النفـس البشـرية؛ هـي تقبـل مـا كانـت لا تقبـل بـه عندمـا تحتـاج إليـه..

فأسـأل نفسـي ببسـاطة هـل تغيُّـر الدوافـع والرغبـة.. المبـادئ والأفـكار والقيـم؟ وهـل تقـوى الأنانيـة علـى قتـل الضميـر؟

تتجـرع أمـي كل مـا أعدّتـه جدتـي لهـا للتخلـص مـن الطفـل الـذي تحملـه فـي أحشـائها، ذاك الطفـل الـذي يدفـع حياتـه ثمنـاً لخطـأ لـم يرتكبـه.. ثـم طفقـت بجنـون تشـرب مـا تبـرده جدتـي لهـا فـي الثلاجـة، وكانـت قـد أعدتـه نهـاراً.

ومـا إن انتهـت مرحلـة النهـل الهيسـتيرية، دخلـت جدتـي الحمـام رفقـة مريـم، تحمـل بيدهـا كيسـاً صغيـراً لا أعلـم مـا بداخلـه، أو مـاذا سـتفعلان بـه، وبقيـت لدقائـق معـدودة، ثـم خرجـت وحدهـا. متوتـرة وقلقـة. خفـت ممـا يحـدث، وانزعجـت انزعاجـاً لا مثيـل لـه، كل مـا أراه ينـذر بوقـوع كارثـة.

تلـك الدقائـق التـي بقيـت فيهـا أمـي فـي الحمـام مـرت عليّ دهـراً، حتـى خرجـتْ مضطربـةً، واضطجعـتْ علـى الفـراش الـذي مدّتـه لهـا جدتـي علـى الأرض. لوهلـة سـيطر الصمـت علـى المكان، فشـهقت مـن أهـوال الليلـة التـي أشـعر بهـا، والتـي زادتنـي سـنين عـدداً.

التفتتْ إليّ، وتلاقت عيوننا في خوف، كانت لغة العيون بيننا أبلغ من الكلمات.. كم كانت تشعر مريم بالرعب، وكم كنت أشفق عليها.. تسللت دمعة من عينها، وهي تنظر إليّ محبطة خانعة، كدت أرتمي في أحضانها لولا دخول جدتي الغرفة.

جاءت وهي تسحب خيشة الأرز الهندي من المطبخ سحباً، ترى ماذا كانت تريد أن تفعل بها؟ هرعت أساعدها، عندما وجدتها تعاني وتتوجّع أثناء محاولتها حمل الخيشة، فحملتها معها بصعوبة، دون أن أدري بأنها ستضعها على بطن أمي!

قفزتُ إلى الوراء أراقب ما يحدث في جزع، أكاد أموت خوفاً في مكاني، أدعو الله أن تنتهي هذه الليلة الكئيبة على خير، ولكن عوضاً عن ذلك جلستْ جدتي على الخيشة التي كانت على بطن مريم، تمسح بكمّ يدها عرق جبينها، وتلتقط أنفاسها.. تأوّهت أمي، فبكيت أنا لعذابها، دون أن تأبه، وتبوّلت على نفسي؛ خوفاً، فجذبت إليّ انتباه الحنونة التي ظننتُ أنها ستقتل أمي.

نظرت الحنونة إليّ، ثم لأمي، وقامت من فوق الخيشة لتحتضنني مطولاً، وتقرأ في أذني بعض آيات الذكر الحكيم، تعتصرني في حب، تسحب الخوف من نفسي، وكأنها تمتصّ قلقي بصدرها، ثم مسحت على رأسي في حب، وسألتني بصوتها المتحشرج:

«أسماء هل تعدينني ألا تخبري كائناً من كان بما حدث اليوم؟».

في أحضان جدتي أنظر إلى مريم التي التصقتْ ثيابها بها من شدة التعرق، ثم أهزّ رأسي على مضض موافقة، فتبرر لي ما بدا منهما:

«ماما تحمل في أحشائها طفلاً مشوَّهاً، مريضاً، معلولاً، وعلينا أن نتخلص منه قبل أن تُنفَخ فيه الروح، حتى لا يتعذّب، ويعذّبنا معه».

أمي تتأوه، وتعضّ على شفتيها في ألم، تنظر إليها جدتي في قلق، ثم تنظر إليّ:

«أنتِ فتاة كبيرة، وأنا أثق بكِ..».

ترفع ذقني بأصبعها، تخترق عينيّ نظراتها، وأسمع صوتها مختلفاً، فيقشعرّ بدني منه:

«تعلمين ماذا سيحدث إذا علم خالد بالأمر؟!».

عندما سمعتُ اسمه تذكرتُ صوت خرطوم المياه، وهو يشقّ الهواء، وآثاره على لحم والدتي في الملحق، فأقسمت بيني وبين نفسي أنني لن أنبس ببنت شفة، وكأنه لم يقع حتى.

أنهك الأدرينالين جسدي الصغير وهدّه، فنمتُ من شدة التعب والقلق، بعد أن وعدتني الحنونة بأن لا مكروه سيصيب أمي، وليتني ما نمتُ.

شاهدتُ رأس خالد على أجسام وحوش مهيبة، أخافتني خوفاً لم أشعر به في حياتي من قبل، واختلط علي الأمر،

فما عدتُ أفرق بين الكابوس والواقع.. بدا كل شيء حقيقيّاً.. شنيعاً، ولم أتخلص منه إلا بصراخ أمي مريم الذي انتزعني، وأنقذني ففتحت عيني، ويا لهول ما رأيت.. لم يكن أحسن حالاً من الكابوس!

كانت أمي تتلوى وتتخبط في دمائها، وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة، أما جدتي فقد كانت تتفحص بركة الدماء بين فخذي مريم!

تدثرتُ بغطائي، وأغمضتُ عيني بقوة، ثم أقحمتُ أصابعي في أذني بشدة، حتى لا أسمع همهماتها وتوسلاتها.. لا أريد أن أرى أمي تموت، ولم أرَ شيئاً تلك الليلة.

* * *

لا أرى شيئاً.. همهمات مريم وتوسلاتها تجبرني على أن أستيقظ في غرفتي بالمستشفى. أليست الأمهات معجزات تمشي على أقدام، فلماذا لا تفعل شيئاً؟ لا يشترط أن يكون خارقاً بل أي شيء.

تناديني مريم، وتعيد:

«أسماء.. أسماء».

أحاول أن أحدد مصدر صوتها، فتدور عيناي في محجريهما، مع دوران رأسي، لا أقدر، يزيغ بصري وأستسلم.

أعود إلى الظلام!

عندما عاد أبي، هالته حال مريم المزرية قطعاً، ليس اهتماماً بها، فهو لا يفقه حسّاً، ولا يعرف شعوراً، بل ربما خوفاً من المحاسبة القانونية، إنْ تُوفّيت، وقد يكون مستغرباً من تبدّل حالها، فهي في يوم وليلة أصبحت شاحبة كالأموات!

أخبرَته جدتي متلعثمة بكلماتها بأن أمي تعثّرتْ، أمس، ووقعتْ من أعلى السلالم، ففقدت جنينها.. استدار الجلف ناحية أمي وبصق!

«حمقاء لا تجيد حتى المشي».

دخل غرفته وهو يكلم نفسه، ويشتم الجميع في غضب، حتى أنا، ثم أغلق الباب من خلفه مزلزلاً أرجاء البيت، فتنفسنا جميعاً الصعداء. نظرت إلى أمي، وإذا بها تبتسم، وعلى الرغم من تعاسة الوضع، إلا أنها بدتْ مرتاحة!

ترى هل يعدّ الإجهاض حقّاً أم هو جريمة؟

مازلت أذكر تلك الفترة بكل تفاصيلها وأحاسيسها الجديدة التي اكتشفتها حينذاك لأول مرة.

الاستنكار!

لقد أكلَت الحيرة قلبي؛ كيف لجدتي أن تشارك أمي جريمتها النكراء، وهي بالنسبة إليّ مدرسة في الأخلاق، توجّهني دائماً إلى الصواب، وترشدني؟!

استنكرتُ تناقضها وتشوّشتْ صورتها المثالية، كذلك

استنكرتُ ابتسامة أمي وضحكتها، كيف لها أن ترتاح وتستعيد عافيتها وقوتها بسرعة، وكأنها لم تحمل وتجهض؟!

استنكرتُ قسوتها حتى صرتُ لا أفرق بينها وبين خالد!

الغيرة!

غِرت على جدتي من أمي.. فقد أشعلت الحنونة بحبها واهتمامها الذي صبّته على مريم نيران الغيرة في فؤادي.. لدرجة أنني لا أحسب تلك الساعات التي انشغلتْ بها جدتي عني من عمري!

صرتُ بين مطرقة جدتي وسندان أمي؛ فهذه أمي، وتلك الحنونة جدتي.

لم يكن من المنطقي أن أحسد والدتي على جدتي أو أغار على جدتي من أمي.. ولكنني حسدتها، واضطربت فصرتُ أكثر عصبية وانفعالاً حتى بدت غيرتي جليَّةً لهن، تجاهلتني مريم، وربما كنتُ آخر ما ينقصها في حالتها تلك لتفكر بي، وتحمل همي، وتقلق علي.

في حين بررت لي جدتي في هدوء بأن من واجبها أن تعتني بأمي؛ لأنها نُفساء، لكونها أنثى فهي تعاني من تغيرات هرمونية وبيولوجية تحتاج إلى معاملة خاصة لمدة أربعين يوماً، حتى تعود إلى طبيعتها.. وهمست لي بعد أن غمزت بعينها قائلة:

«ستبقين أنتِ طفلتي المفضلة.. الأجمل في عيني والأحب إلى قلبي».

فرضيت!

للأمانة، شَقِيَتْ جدتي جدّاً في محاولة إرضائي، مع القيام بواجباتها الجديدة تجاه والدتي، خصوصاً وأن أمي لا تجد أحداً يُعِدّ لها طبق حسو بحبّة البركة لينظف لها رحمها ويقذف ما تبقى من الجنين خارجاً على سبيل المثال، أو عصيدة تفرد بها طولها مثلاً أو حتى طبق قبوط بالحلبة تقوي به عظمها.. والأهم لم تحظ مريم بكتف تبكي عليها معاناتها.

تشتاق لوطنها، وتحنّ إلى أسرتها.. غير قادرة على التأقلم مع الزواج، على الرغم من مضي سنوات.. تفتقد الرجل في حياتها.. خالد كان زوجاً، ولكنه لم يكن رجلاً، زوجها الذي سرق منها طفولتها، مراهقتها وشبابها.. كان مجرد ذكر، والآن تقتل جنيناً قد يكون الدعاء في صلاة الآلاف من المحرومات.. أي قهر يدفعها للتخلص منه بيدها؟ ترى هل سيؤنبهما ضميرهما؟

لأنني اعتبرت ما قالته الحنونة لي منطقيّاً قبلت به على مضض، ولأيسّر الأمر على نفسي أعددت رزنامة، وألصقتها على باب المطبخ كنت قد صمّمتها ولوّنتها بيدي، وبدأت أشطب عليها في كل يوم يمضي حتى أعرف كم المتبقي لأتخلص من شريكتي في جدتي.

مضت أربعون يوماً، كأنها أربعون عاماً، اعتقدت أنها لن تمضي.. طويلة وصعبة عليّ، وربما أكثر على خالد!

فقد كان يحاول أن يستدرجها بالحيلة تارة، وباختطافها بالقوة من غرفة جدتي، حيث ننام ثلاثتنا تارة أخرى، ولكن كانت محاولاته تبوء بالفشل، فيغتاظ ويجنّ جنونه، وينهال عليها بالسباب والشتائم الشنيعة.

وفي ليلة اقتحم علينا غرفة الحنونة وهي بثوب الصلاة ساجدة يزبد ويهدد، دون أن يأخذ في اعتباره وجودي ووجود والدته، وقال بكل وقاحة:

«إن لم تعودي الليلة يا مريم لفراشي وتحملي بطفلي..».

قطعت جدتي صلاتها، وقاطعته مسرعة، وهي تسرق النظر لي خوفاً من أن يفتح عيني بكلمة ينطقها، ولا يحسب لها حساباً:

«البنت يا خالد!».

نظر إليّ بعينين متّقدتين، وقال من تحت أسنانه:

«لتذهب البنت إلى الجحيم».

وأكمل وكأنه لم يكسر في قلبي شيئاً أوجعني:

«ستنجبين لي رغماً عنك صبيّاً يحمل اسمي، وإلا سأتزوج عليك بدل الزوجة.. ثلاثاً!»

داريتُ نفسي خلف الحنونة، أترجم تهديده حسب فهمي بسرعة، سيزعزع الاستقرار، وسيتحول البيت إلى ساحة قتال.. كم أكره الغرباء!

أكمل بحقد، وهو ينظر لها باحتقار:

«وستقومين يا مريم على خدمتهن وأبنائهن بنفسك.. خادمة هذا المنزل».

شهقتُ من هول ما سمعتُ فنظرت إلى أمي وعيناي بالكاد في محجريهما، وإذا بها تبتسم في برود وفي عينيها نظرة تحدٍّ.. خفت وقبضت على جلباب جدتي من الخلف.. كل ما حولي ينذر بوقوع كارثة.. ووقعت!

زغردت أمي زغاريد متتالية أصابت بها خالداً في مقتل!

انتزعت منه في لحظة أسلحته التي كان يعتقد أنها قوية، وأشعرته بأنه هراء لا قيمة له، بل قد عبرت عن مقتها له بزغاريدها أبلغ تعبير!

زمجر خالد في حنق، فوضعت جدتي كفّ يدها على فم مريم محاولة أن تمنعها من الزغردة، في حين أغلقت أنا أذنيّ بيديّ، وفي غمضة عين انقضّ خالد على أمي، وطوّق رقبتها بين يديه الكبيرتين وعوضاً عن أن تصمت، جاهدت لاستفزازه أكثر، وقالت له:

«اقتلني لأرتاح منك.. أموت ويعدمونك».

وبـدأ بخنقهـا حتـى ازرقّ لونهـا، لسـانها تدلـى وعيناهـا الزرقـاوان جحظتـا.. تصـرخ جدتـي كتلـك الدجاجـة المذبوحـة، تحـاول أن تسـحبه عـن مريـم بـكل قوتهـا، ولكنهـا لا تقـدر.. فيغمـى عليهـا.

بإغمائهـا تركتنـي وحيـدة، أشـهد علـى مقتـل والدتـي بـأم عينـيّ.. كنـت أقفـز فـي مكانـي وكأننـي أدوس علـى مسـامير.. لا أعـرف كيـف أتصـرف، فقـد نسـيت رقـم الشـرطة الـذي لطالمـا ذكرتـه، بـل نسـيت الطريـق إلـى البـاب فعجـزت عـن طلـب مسـاعدة الجيـران، مـاذا لـو ابتعـدت وماتـت؟!

صرخـت الظلـم بأعلـى صوتـي حتـى بـح وفقـدت الإحسـاس بحنجرتـي.. خـارت قـوى مريـم وتوقفـت عـن المقاومـة هنـا.. هويـتُ بالمزهريـة علـى رأسـه فكسـرتها، وربمـا كسـرته.. كيـف ومتـى لا أعلـم!

تناثر دمه على الحائط.. انتهى أمري إذن!

يصـل إلـى مسـامعي سـعال أمـي وشـهيقها، وهـي تحـاول أن تتنفـس، آمـل أن تنجدنـي كمـا أنقـذت حياتهـا، وأرى خالـداً يمسـك بقمـة رأسـه غيـر مصـدق مـا حـدث.

يعايـن الدمـاء التـي خضبـت يـده، وبوحشـية اندفـع ناحيتـي، يصـدر منـه صـوت غريـب أقـرب إلـى صـوت الحيوانـات الضاريـة.. هـي أجـزاء مـن الثانيـة التـي تبولـت فيهـا مـن الخـوف

على نفسي، ثم أغمضت عينيّ بقدر ما استطعت، إلا أن أغطي وجهي بيدي، فإذا به يرفسني بلا رحمة!

رفس أحد ضلوعي اليسرى، أحسب أني من قوة الرفسة طرت.. فما وجدت نفسي إلا مسجاة على الأرض أحاول أن ألتقط أنفاسي من شدة الألم والخوف، ولم يمهلني فلفّ جديلتي حول يده وحملني منها للأعلى علقني من شعري في الهواء.. كتلك الذبيحة، صرخت جدتي، فأوقعني بلا رحمة.. أتحسس فروة رأسي التي كادت أن تنسلخ عن جمجمتي، تحرقني. خرج خالد، ومازالت أمي تكح.

* * *

«آه يا ضلعي»

هل وقعتُ من سيارة الإسعاف أم أنهم ألقوا بي أرضاً في غرفة الإنعاش؟ ضلوعي تؤلمني. أتحسسها بيديّ ربما توجعني من شدة التقيُّؤ!

يداعب أنفي عطر مريم. لابد أنها بالقرب مني، لن أفتح عيني أو أعطيها مجالاً للحديث.. سحقاً، كيف لها أن تتكلم بعد كل ما حدث لي؟

تقول جدتي:

«الأم هي الحب الثابت والحقيقة التي لا تتغير في زمن كل ما فيه يتغير.. أخطأت جدتي، فمريم لم تكن هي الأم..

لـم تكـن كمـا علمتني إحـدى معلمـات اللغـة العربيـة فـي حصـة التعبيـر.. الأمهـات جنـان اللـه فـي الأرض».

مريم لم تكن أي شيء من هذا.

حقّـاً، أيـن كانـت عندمـا احتجـت إليهـا؟ عندمـا احتجـت إلـى الأمومـة بعواطفهـا وأحاسيسـها.. عندمـا تمنّيـت حنانهـا واحتضانهـا.. عندمـا تُقتُ لمواسـاتها لـي بكلمـة واحـدة تُخفّـف بهـا عني مصابي.. عندمـا رجوتُـها وتوسـلت إليهـا.. أيـن كانـت؟

فجـأة، أتذكـر وجـه معلمـة التربيـة الإسـلامية، عندمـا سـألتها مـا عقوبـة عقـوق الآبـاء للأبنـاء؟

لـم يبـرّ بـي أحـد منهـم إلا جدتـي الحنونـة التـي اتّخـذت مـن صدرهـا وطنـاً، ومـن قلبهـا مـلاذاً آمنـاً كلمـا تهـتُ ألـوذُ مـن خوفي إلـى عينيهـا، صوتهـا وقلبهـا.. لطالمـا كانـت هـي اسـتقامة ظهـري، أمـا مريـم فقـد كانـت اسـماً كتـب فـي شـهادة ميـلادي فقـط! اسـتجمعتُ قـواي، وقلـت لهـا كارهـة بقاءهـا معـي:

«تأخرتِ يا مريم.. لقد فات الأوان»..

تبكي، فأعطيها ظهري وأنام.

* * *

«لقد فات الأوان»

صرخـت جدتـي بصوتهـا المبحـوح فـي أبـي، وهـي تشـق جيبهـا فـي ظهيـرة أحـد أيـام شـتاء عـام 1995. يومهـا لـم أكـن

قد تجاوزت الثانية عشرة من عمري، عندما أيقنت أن هناك اتفاقاً وطيداً بيني وبين التعاسة.. يا ترى أين ذهبت كل تلك القصص الجميلة وحكايات جدتي اللطيفة؟ ولماذا لا تشبه الواقع الذي أعيشه؟

يبدو أنها لم تكن سوى ترهات ملونة تباع للأطفال.. تجارة على حساب البراءة، ولم أكتشف زيفها إلا بأصعب الطرق وأكثرها مرارة.. فقدت إيماني بقصص الأطفال في ذاك العام!

أيعقل أنّ كل الأطفال في العالم يعانون كما أعاني، أم أنني سيئة الحظ، بل الأسوأ حظّاً بينهم؟

صراخ جدتي سحبني من الحوش- حيث كنت ألعب أنا ودميتي - إلى الملحق، ذاك المكان الذي أخافه ويصعب عليّ الاقتراب منه، وجدت جدتي في حالة هيستيريا، لقد حطمت ما استطاعت مما تبقى من أثاث قديم، ومزّقت كل ما طالته يدها مما يمكن تمزيقه، حتى إنها مزقت ثيابها، أول مرة أرى جدتي بهذه الحالة.

اللعنة!

أسبق الحدث وأتبول دون إرادتي كالعادة، وأرتعد من الخوف، ربما من البرد.. ماذا يحدث هنا؟

من بعد تلك الرفسة لم أجرؤ أبداً على الاقتراب منه هادئاً، فما بالك هائجاً!

حسناً، هو مختلف الآن، ولكن في كل الأحوال لا يمكنك أن تأمن الحيوانات، وتتنبأ بردود أفعالها.. تُحسن لها.. فتفترسك!

أمي تحاول أن تهدئ من روع جدتي، في حين يدخن خالد سيجارته جالساً على صندوق خشبي يداري وجهه عن الجميع، وكأنه لا يتجرأ على أن ينظر إليهم! شيء ما ليس على ما يرام.

لطالما كان هو المتسبب في الشجار، وأول من يستخدم يده في حل أي نزاع.. الخصم القوي الذي ينهي كل المواقف بعنف.. اليوم انعكست الآية، هذه المرة.. كان صامتاً، متبلداً وهادئاً!

وعلى غير عادته كان محرجاً.. لسبب ما، كان يشعر بالخزي!

حتى عندما هجمت عليه الحنونة بشراسة لم يدافع عن نفسه، وتركها تنتف شعر رأسه بيدها بلا مقاومة منه، ولا حتى معارضة، فازداد غضبها.. وبدأت بالصراخ:

«ولد وفي ملحق بيتي.. ولد يا خالد».

لأول مرة لم تخف جدتي من الحوائط التي لها آذان كما كانت تقول لي، ولم تحفل أن يسمع كلامها الجيران، وتنكشف حرمة البيوت وتفتضح.

ما رأته جدتي كان أكبر مما تحتمل، فانهارت كل القيم التي كانت تحرص عليها، وحتى الأخلاق فرأيتها تبصق عليه وتلعنه، خالد لا يزال يدخن سيجارته وهو جامد.. أما مريم فقد كانت تحاول أن تمسك بيدي جدتي لئلا تجرح نفسها أو تضرها.

كانت النار التي تحرق روح جدتي شديدة فظيعة لا تستطيع التحكم بها، وفي مشهد مسرحي مبالغ فيه، دفعت أمي بقوة وأبعدتها عن طريقها، وسكبت محتويات قنينة غريبة كانت بالقرب من باب الملحق على رأسها، فتبللت هي وثيابها، شحب لون خالد، ووقف في مكانه، أكاد أجزم بأنه ابتلع سيجارته!

والدي كان يرتعش.. لأول مرة في حياتي أراه آدميّاً بمشاعر بشرية.. خجل، صدمة، قلق وخوف، وكأنه لم يكن أبي الذي أعرفه...

توسعت حدقة عينه عندما رفعت جدتي يدها في الهواء تلوح بأعواد الثقاب، وهي تتكلم.. في الحقيقة لم أسمع ما تقول، كل ما كنت أسمعه صفير في أذني، ازداد عندما ركض والداي باتجاهها يمنعانها من إشعال أعواد الكبريت. أنظر إلى ركبتي اللتين تصطفقان مطولاً، ما خطبهما؟ الحنونة إذن ستحرق نفسها.

وقعت في بركة البول على ركبتي اللتين ما عادت تقدران على حملي.. أظنني صرخت بأعلى صوتي، ولكن ما سمعت إلا الصفير!

أنـا لا أتعـرف إلـى أي منهـم، مـن هـؤلاء؟ وكيـف تبدلـت الأدوار؟ كيـف أصبـح خالـد المتجبـر ضعيفـاً يقبـل يـد أمـه مجهشـاً بالبـكاء كالأطفـال؟ متـى أصبحـت جدتـي الحنونـة الفاضلـة متوحشـة، فاحشـة اللسـان، ضعيفـة الإيمـان؟ مـا سـرّ قـوة أمـي؟ تشـتم خالـد تـارة، وتضربـه فـي حقـد تـارة أخـرى.. هـل كانـت تشـفي غليلهـا منـه وتنتقـم؟

هواجس.. تهيؤات.. وساوس.. ترى ما سر الصبي الذي ستحرق جدتي نفسها من أجله؟

الصفير يزداد، ويغمى عليَّ.

* * *

أفزّ من نومي بسبب تلك الممرضة الرعناء التي تدفع الباب بقوة، وأشك في أنها تتعمد إزعاجي، أنتظر منها أن تنظر لي حتى أصبّ جام غضبي عليها، ولحسن حظها لم تفعل، فلم أنزل عليها بوابل من الشتائم.. ابتلعت لساني منزعجة!

أسترجع اللحظات المعدودة التي كنت واعية فيها هنا بسرعة، وأفكر في أنهم يتعمدون الإساءة لي، وكأنهم متفقون على التقليل من شأني وإهانتي لردعي عن الانتحار، أو ربما معاقبتي عليه، للأسف كنت أغبى من أن أنجح في محاولتي، ولكنني لن أقف مكتوفة الأيدي، فالكرامة تعلو على كل شعور!

تقيس الممرضة ضغط دمي، وتتأكد من سرعة تدفق أكياس المحاليل المعلقة في الأنابيب إلى داخل شراييني، وتسألها مريم:

«هل كل شيء على ما يرام؟».

تكتفي الممرضة بهز رأسها بالإيجاب، وعندما استدارت لتحضر لي حقنتي وقعت عيني في عين أمي.. هل حقّاً هي متأثرة؟

شرد ذهني وأنا أنظر إليها بهدوء، أفكر إن كانت الإجابة عن هذا السؤال تهمني، فتيقنت حقّاً أنني لا أكترث ولن أحفل بتأثرها من عدمه..

لا أعلم بماذا فسّرت هي تلك النظرات، وحاولت أن تكسر حاجز الصمت بيننا، إلا أن وخزة الحقنة كانت أقرب.. آه!

تكور الدواء الدهني وتورم.. إلى متى مكتوب عليّ أن أتألم؟

* * *

آلام رهيبة تجتاح جسدي الصغير.. آلام لا أعرفها!

كنت طفلة في الثالثة عشرة من عمري عندما تألمت ألماً جديداً لم أجربه في حياتي من قبل، حتى إنني عجزت عن تحديد مصدر الألم.. هل هو أسفل بطني أم أنه حوضي؟ هل الألم مصدره فخذي من الخلف أم أنه ينبثق من ظهري؟

كل ما أعرفه ومتأكدة منه أنني لست على ما يرام، مرهقة على غير العادة، واهنة وضعيفة، لا أنتبه للمعلمات أو أستوعب الدروس، ولا أطيق أو أستجيب لهن!

تناديني معلمة العلوم، تطلب مني الكتابة على السبورة البيضاء، ولكنني أعجز عن القيام لها، أنظر إليها ببلاهة، وكل ما أشعر به هو القلق والاضطراب.. لم أشعر بالتوتر؟ تقترب المعلمة، وتضع يدها على جبيني.. فأختنق بعبرتي!

تضطرب معلمتي الودودة باضطرابي، وتسألني بحنان عما بي، فتتضخم العبرة، وأعجز عن ابتلاع ريقي، تربتُ على كتفي فأحتضنها بقوة، وينطلق مني نشيج أستغربه!

تحيلني إلى عيادة المدرسة، برفقة إحدى طالبات الفصل كانت تقفز بحماس حتى تختارها المعلمة من بين كل الزميلات.. وبطبيعة الحال لم يكن هدفها حقّاً مساعدتي، بل كانت تنوي الهروب من الحصة، أو التجول في الساحات والممرات إلى أن يدق الجرس.. كل ما يهمها الابتعاد عن الصف ولو لدقائق معدودة؟

وفي الطريق إلى الممرضة تسألني وهي تدس إصبعها في أنفها متفكرة، إن كانت حرارتي مرتفعة، فأرفع لها كتفي دلالة على عدم معرفتي!

عندما قاست الممرضة حرارتي وجدتها طبيعية.. عجيب

جـدّاً، أشـعر بالنـار تسـتعر فـيّ وأشـعر بوجنتـي تحتـرق بحمـرة غيـر معتـادة.. ولكـن لا أثـر لأي مـرض!

تعطينـي الممرضـة مسـكناً مـا، ربمـا خافـض حـرارة أبتلعـه على مضـض، وتكافئني على أخـذي للـدواء بعلبـة عصير بـاردة، ولـوح مـن الشـيكولاتة، انقضضـت على ذاك اللـوح والتهمتـه فـي ثـوانٍ.. شـعرت بطعمـه مختلفـاً، أكاد أجـزم بأننـي أحسسـت بـكل حبـة سـكر فـي تلـك الشـيكولاتة تـذوب فـي فمـي!

سـألتني الممرضـة وأنـا ألعـق آخـر مـا تبقـى مـن الشـيكولاتة على أصابعـي، إن كنـت أرغـب فـي الاتصـال بأحـد مـن أهلـي؛ ليعيدنـي إلـى البيـت أو يأخذنـي إلـى المسـتوصف، فأسـرح!

أنـا لـم أتصـل بخالـد فـي حياتـي، فـلا أتوقـع ردة فعلـه إن اتصلـت بـه إدارة المدرسـة الآن، لاسـيما أثنـاء نومـه. آخـر مـا أحتـاج إليـه وأنـا فـي هـذه الحالـة المزاجيـة العكـرة أن يكدرنـي والـدي نطقـاً أو ضربـاً!

ولـو اتصلـتُ على أمـي سـأضيع وقتـي ووقـت الإدارة لأنهـا لـن تتصـرف، هـي لا تتصـرف أبـداً، لأنهـا أساسـاً لا تقـدر على مغـادرة المنـزل، لا تقـود سـيارة، وتخـاف مـن كل سـائق سـيارة أجـرة، ولا تعـرف محطـات وقـوف الباصـات، علـى افتـراض أنهـا سـتركب بـاص المواصـلات، كمـا أنهـا سـتخجل مـن أن تطلـب توصيلـة مـن الجيـران.. أعذارهـا لا نهايـة لهـا، لا أفـرق بيـن الحقيقـي منهـا والواهـي!

أما جدتي الحنونة فقد كانت متوعكة اليوم، فلم تشغل المذياع، ولم يصدح صوت قارئ القرآن في البيت، لم تشتعل نيران تنورها، ولم تفُح رائحة الخبز هذا الصباح.

هي تتأخر في النوم ما إن تشعر بالتعب.. قطعاً لن أضايقها، ربما لا تزال نائمة.. لن أسحبها من فراشها الدافئ إليّ!

هززت رأسي بالنفي.. لن أتصل على أحد، آثرت البقاء وحدي.. سأتحمل المغص والدوار، الشعور بالغثيان، وذاك القلق المريب.. وحدي.

غصة، ربما غربة.. لا أحد معي.

* * *

فتحت عيني على صوت أمي:

«أسماء حبيبتي».

أبصرت مريم تجلس في غرفتي بالمستشفى على الأرض، عند قدمي تمسك برأسها بيديها الاثنتين وتُطرق به للأرض، تتأوه والدتي بحسرة، ولكنّ ذلك لا يحرك شعرة من رأسي.. تتمتم بكلمات غير مفهومة، وكأن الكلمات لا توافيها.

أتذكر معلمة التربية الإسلامية، وهي تنهر ليلى وتشاجرها.. قالت لها ليلى بمنطق طفولي: إنها تظن أنه لابد وأن الله مشغول جدّاً ليرعانا جميعاً، فخلق الأمهات حتى يساعدنه..

استغفرت معلمتي، واستعاذت من الشيطان الرجيم، ثم طردت ليلى من الدرس!

استطردت قائلة: الأمهات أوطان تلملم أشتاتنا تحتضننا وتحتوينا، أوطان تتمنى أن يفتك بها الوجع ولا يقربنا.. وطن يدافع عمن يسكنه، ويبذل في سبيله كل ما يستطيع.. الأمهات تشرق الشمس في عيونهن، وتُستجاب دعوتهن!

انشغل بالي فوراً.. إن كانت دعوة الأمهات حياة وطوق نجاة، فأين كنت أنا من دعوة أمي؟

أشعر بأن دواراً يقتلع وعيي من جذوره.. لماذا طردت المعلمة ليلى من الفصل؟

لم أعد أرى شيئاً!

* * *

تحملت المدرسة في ذاك اليوم بكل أوجاعي، وما ارتحت حتى جلست في الباص في طريق العودة إلى المنزل، تلك المقاعد الساخنة تحولت إلى كمادات دافئة، وأشعة الشمس الملتهبة حوّلت الباص إلى غرفة ساونا!

الحرارة التي كانت تنبثق من أجساد الصغيرات المنهكات محملة برائحة هرمونات تكاد تفور وتتفجر، مختلطة برائحة السائق اللزج بعرقه وزيت شعره، تدفع للاشمئزاز، ولكنها كانت تخفف عني ذاك الوجع المريب!

عندما وصلت إلى البيت لم أسابق الريح كعادتي وألقي بنفسي في أحضان جدتي.. لم أغزُ المطبخ، واغتنم منه بعض اللقيمات سرّاً، حتى قبل أن أغسل يدي.

لم أتطفل على مريم لأكتشف حالتها المزاجية، فأكبح شقاوتي بناء عليها، بل سحبت أقدامي إلى غرفتي سحباً، ولم أعرْ أيّاً منهم أي أهمية، وكأنني لم ألحظ وجودهم، وألقيت بنفسي على سريري.

لم أستبدل ثيابي ولم أغتسل.. اضطجعت في تعب، ولم يأخذ الأمر إلا بضع ثوان لأجهش في البكاء لسبب لا أعرفه.. حمقاء! أبكي بلا سبب، وأشعر بالغضب من نفسي.

غبية، تسمح لأمر مجهول أن يزعجها، ويعكر صفو يومها. ركزت قليلاً على أحاسيسي لأكتشف ما يحدث.. أراجع مشاعري، فلابد وأن هناك ما سيفسر ويعلل ما يحدث معي منذ الصباح!

يا للهول! هل كنت منبوذة، بنتاً لا يحبها أحد؟ أم كنت نكرة لا أحد يكترث لأمرها؟ هل في حالتي أنا الوجود كالعدم، وأظن أن وجودي قد يكون سبباً يزيد شقاءهم.. يالتعاستي!

جدتي تقطع أفكاري بطرقها للباب، وطلبها مني الاستعداد لتناول طعام الغداء.. أدخل الحمام على مضض للاغتسال، وإذا بها الصاعقة!

بقعة داكنة اللون تستقر في ملابسي الداخلية وتلوثها، أجهل ماهيتها، أرتعش بقوة، وتزداد تقلصات بطني.. أنزع ثيابي مترددة، وأتفحصها عن قرب، فضول طفولي يدفعني في خوف للمس البقعة الداكنة اللزجة بإصبعي، ولا أعلم كم بقيت أفكر بما أفرزه جسدي من ذاك العضو (العيب) موسخاً ثيابي ويدي!

انشغالي باكتشاف وتفحص مصابي أعاد إليّ جدتي، لتعبّر بصوتها المتعب عن استغرابها من تأخري في الحمام.. فألفّ ثيابي بيد مرتجفة، وألقي بها في سلة القمامة، وكأنني أتخلص في خوف من أداة جريمة قد تدينني.

ألبس ثياباً نظيفة على عجالة بعد أن اغتسلت، ركضت بصعوبة إلى طاولة الطعام القديمة، حيث أجلس بالقرب من جدتي، ولا أرفع عيني عن الطبق الموضوع أمامي.. خليط المشاعر يثقل عاتقي، فلا أقوى على الجلوس مثل كل يوم.

أتعرق.. ألعب بالطعام لا أشتهي الأكل.. فالشعور بما يتدفق مني، والتفكير فيه مقزز!

افترس والدي طعامه افتراساً دون أن ينتبه لي.. وكيف لا ينتبه؟ لقد كنت صامتة تماماً بعدما كنت معتادة كل يوم على أن أثرثر للحنونة بكل ما يحدث في المدرسة منذ أن أدخلها، وحتى عودتي إلى المنزل.. أنقل لها أثناء تناول الغداء إعلانات برنامج إذاعة طابور الصباح من مسابقات وفعاليات، لتنتقي هي لي ما أشارك به، بعد أن تشرح لي وجهة نظرها.

أخبرها عن مغامرات المشاغبات، وكيف يفتضح أمرهن، وما عقوبتهن؟ ثم نتناقش إن كانت العقوبة تناسب الفعل أم لا، أصف لها أدق التفاصيل، حتى أخبار المعلمات بدءاً من المظهر وحتى مناسباتهن الاجتماعية، من منهن تزوجت، ومن منهن أنجبت، والأسرار التي نكتشفها بالمصادفة عندما نقتحم مكاتبهن بذريعة مساعدتهن، وحمل الوسائل إلى الصف.

أتذكر في مرة من المرات دخلنا غرفة المعلمات، وإذا بواحدة تطرح الأخرى أرضاً، وتنهال عليها ضرباً بحذائها.. البنات يضحكن، ولكنني كنت أسمع ما تقولانه.. تضربها لأنها سرقت منها زوجها، تسببت في طلاقها وخراب بيتها.

لماذا لا تُطلَّق مريم؟ وأي خراب تخاف منه بعد؟

يقوم خالد ليأخذ قيلولته، ولم يفرغ أحدنا من الأكل بعد، يتكرع في الطريق، ويبصق بلا تهذيب ولا احترام. حينها فقط تصادمت نظراتي مع من انتبه لي، وربما افتقد أحاديثي.. نظرات أمي المتوجسة ونظرات جدتي المشفقة.. لا أعلم ما حدث وما رأين في عيني، قامت أمي من مكانها بلا سابق إنذار ومسحت على رأسي بحنان، فأغمضت عيني في اللحظة التي لمس فيها كف يدها قمة رأسي بتركيز. خفت أن يكون حلماً جميلاً، سأصحو منه!

شحذت وقتها من كل حواسي التركيز كقطة مترقبة حذرة لأي حركة حولها، أنتظر الشعور بدفء يدها ورائحة صدرها

وبحة صوتها والقلق في سؤالها.. في تلك اللحظة لم أتمنَّ شيئاً إلا حضن أمي.. احتضان آخر أُخفف به كل ما عانيت منه منذ الصباح.

كنت متعطشة لمريم، أحتاج إليها بكل جوارحي، أردت أن أضمها إليّ، ولكن سبقني إليها نداء والدي يختطفها مني، فارتعدتْ وهرولتْ إليه... تخلّت عني عندما احتجت إليها. جمعت أشلاء مشاعري التي تناثرت أمام جدتي، وركضت بها إلى غرفتي أبكيها، فنفسي تفيض بالعاطفة.. اللعنة، تلك التقلصات تهجم عليّ من جديد.. ثم تدفق شيء.

قفزت من مكاني إلى الحمام لأكتشف أن البقعة عادت من جديد لتعلن عن هويتها.. دم!

أفصحت البقعة عن نفسها بصراحة، فشهقت رعباً.. لم أقع قط ولم أجرح نفسي، بل إنني لم أصطدم بأي شيء.. كما كانت تحذرني جدتي، إذن ما سر هذه الدماء؟!

وبعقلية طفلة تجهل ما يدور لحظتها توصلت إلى أنني أموت، ومن المنطقي جدّاً أن أموت الآن، فأنا حتى لا أعرف شكل الموت ولا حقيقته، لكنني سمعت بأن زوج جارتنا رباب وقع من علو ومات من شدة النزف، وأن إحدى قريبات جدتي نزفت في ولادتها حتى الموت.

أتذكر ليلة إجهاض مريم.. إذن انتهت حياتي، وإلا لما

كنت أعاني من كل تلك العواطف المتفجرة المتناقضة.. ذاك القلق الذي نهش نفسيتي ومزاجي، بل جسدي أيضاً منذ الصباح.. نعم إنه الموت!

عادت جدتي تطرق الباب بعنف من جديد، تلك الحنونة التي أجدها أقرب لي من أمي حتى لو لم أطلب منها ذلك، وحِرتُ، هل أتجاهلها رحمة بها فلا تراني أغرق في دمائي، أم أفتح لها الباب فلربما تنقذني؟

ضرباتها تشتد مع صراخها.. حيرتي تزيد معها.. أخاف وأتوتر، إذا لم تدخل الآن وتطمئن عليّ لربما يصيبها مكروه!

أفتح الباب على مضض.. تقف جدتي أمامي، وتمسك بكتفي.. تنظر إليّ في خوف، وتنتظر مني تبريراً! لا أقوى على رفع رأسي فأنظر إلى أصابع أقدامها.. ظفر إبهامها لم ينمُ، بعدما اقتلعه خالد لها غير متعمدٍ بغلق الباب عليه دون أن يحتاط، أتذكرها تفرفر في مكانها بصمت، وترفض الذهاب إلى المستشفى.. يا رباه لا يموت الحبّ في قلوب الأمهات أبداً.

بحنان ترفع ذقني بيدها، تلتقط أنفاسها، فأشفق عليها، لكنني فعلاً لا أعلم ماذا أقول فأنزع ثيابي أمامها.. خافت وشحب لونها، قبضت على صدرها، ثم نظرت إليّ وهي تكاد تتهاوى.. فأخبرها بصوت خافت وأنا أشير إلى ثيابي الداخلية الرطبة.

«لا أعلم لماذا، ولكنه لا يتوقف».

تكاد عيناها تقعان من محجريهما، تنتظر مني شرحاً...

«الألم يفتك بي، أنا منهكة منذ الصباح!».

شيء ما في بكائي طمأَنها، فاحتضنتني جدتي وضمتني إلى صدرها، وهي تتنفس الصعداء، ثم تمتمت:

«مبروك».

وكأن أحدهم صب عليّ مياهاً مثلجة.. أنظر إليها وهي تحمل ثيابي المتسخة من على الأرض، ووددت لو أصرخ بها على ماذا تباركين لي؟ ما الذي يستدعي المباركة في حالتي المزرية هذه؟

وبصوت لم أسمعه في حياتي قالت لي:

«بلغتِ يا بنيتي».

ابتسمت لي ابتسامة مطولة، ثم طلبت مني أن أنتظرها في الحمام، خرجت وأنا لا أزال أبحث عن شيء من معاناتي يبعث على الفرح ويدعو للتهنئة، عادت مسرعة معها فوطة صحية من فوط أمي!

في البداية علمتني كيف أغتسل وأتطهر، ثم كيف أستخدم تلك الفوطة التي كانت تشبه حفاظات الأطفال مع اختلاف الأشكال!

* * *

نحيب مريم يسحبني من اللاوعي، وكأنها أقسمت على تكريس حياتها لتنغص عليّ حياتي التي اكتفيت منها وشبعت، إلا أنها أبَت التخلي عني.. أنهرها لئلا تزعج روحي.

«توقفي».

وإذا بصوت رجل غريب يصل إلى مسامعي.. يناديني:

«أسماء».

في مشقة أفتح عيني، وأرمش عدة مرات بسرعة.. الرجل الذي يخاطبني يرتدي الدشداشة الوطنية، وقد نسق غترته بنمط رسمي.. لا أستطيع أن ألاحظ ملامحه بدقة، بسبب وضعي الصحي، ولكنني أستطيع حتماً أن ألتمس الجدية في صوته!

«تسمعينني؟».

لا يزال لساني ثقيلاً، كما أنني أشعر بالعطش، فأهزّ له رأسي بالإيجاب، ويسألني من جديد:

«هل تقوين على الكلام؟».

سألت نفسي لحظتها.. هل أقوى؟ نعم، أقدر على التحدث، ولكنني لا أريد، فأشيح ببصري بعيداً عنه.. يبقى لوهلة، ثم يقول لي وهو يقوم من مكانه:

«سأعود عندما تكونين جاهزة».

يخـرج المحقـق مـن غرفتـي وأتمنـى ألا يعـود.. جدتـي تقـول: «الزجـاج المكسـور لا يتصلـح»، فمـا عسـاه يفعـل بـروح مشـروخة؟

تنتحـب مريـم مـن جديـد بصـوت أمقتـه، وتحـاول أن تتكلـم إلا أننـي أسـعف نفسـي وأنقذهـا مـن سـماعها.. كان الأحـرى بهـا أن تسـمعني إيـاه عندمـا احتجـت إليـه فـي ليالـي مؤرقـة!

صرخت بها لتصمت فصمتت.. أخيراً، فهمتني!

تغطيني بالبطانية.. فأغمض عيني حتى لا أراها.. أنام!

* * *

دثرتنـي جدتـي فـي ذاك اليـوم ووضعـت كيسـاً مـن المـاء السـاخن تحـت اللحـاف، كـدت أن أنـام مـن شـدة الراحـة التـي شـعرت بهـا عكـس مـا شـعرت بـه نهـاراً، إلا أنهـا أحضـرت لـي زوجـاً مـن الشـرابات وطلبـت منـي ارتداءهمـا.. فـي فصـل الصيـف!

تقـول: إن اليـوم سـيمتد إلـى أسـبوع مـن كل شـهر.. حتـى أصـل إلـى سـن اليـأس، والكثيـر مـن الترهـات الأخـرى التـي لا أفهمهـا، ولا تسـرّني!

أحضـرت لـي وشـاحاً لأغطـي بـه رأسـي وأذنـي جيـداً، وعندما سـألتها عـن كل مـا تفعلـه غيـر مصدقـة، ابتسـمت لـي وأفهمتنـي بأننـي علـيّ أن أمتثـل لـكل مـا تأمرنـي بـه فـي هـذه الفتـرة، بـلا

اعتـراض، حتـى لا يصيبنـي مكـروه قـد يضرنـي لاحقـاً عندمـا أكبـر وأتـزوج.. مـا بـال جدتـي اليـوم؟

لا تقربـي الغازيـات، وكل مـا هـو حامـض أو مثلـج، لا تنامـي أو تمشـي أو تجلسـي فـي غرفـة بـاردة، وعليـك بالكثيـر مـن الأعشـاب.. والعديـد مـن التوجيهـات والإرشـادات المعقـدة.. الحرمـان مـن جديـد.

أنـا لا أحـب أن يملـى علـيّ مـا يجـب علـيّ قولـه أو فعلـه، والمنـع أمـر لا أقبلـه البتـة، ولا أرضـى بـه، ولكنهـا لـم تمهلنـي لأعتـرض، فتركتني أمـام التلفـاز، وذهبـت تنهـي مـا عليهـا إنهاؤه.

مللـت الانتظـار، اعتقـدت أنهـا سـترجع لـي، أو علـى الأقـل سـتمر بـي مريـم، لتنصحني هـي بدورهـا، ولكـن لـم يقتـرب منـي أحـد.. أتسـمر أمـام التلفـاز، حيـث رسـومي المتحركـة المفضلـة.. تـوم وجيـري.

لسـنوات عـدة تسـاءلت كـم هـي غريبـة العلاقـة بيـن القـط تـوم، وجيـري الفـأر؟ كيـف يسـتطيعان أن يجعـلا مـن العنف شـيئاً جميـلاً، وكيـف يقـدران علـى أن يضحكانـا بـكل مـا هـو دمـوي شـنيع؟ مـا طبيعـة العلاقـة بينهمـا؟ همـا تـارة صديقـان وتـارة أخـرى عـدوان.

لطالمـا حاولـت أن أفسـر تلـك العلاقـة العجيبـة بينهمـا، فالواحـد منهمـا لا يقـوى علـى العيـش دون الآخـر، فـلا معنـى لتـوم إن لـم يكـن جيـري!

هلوسة تدور في رأسي الصغير قد تكون من تأثير الحيض، وربما بسبب كل ما شربته من أدوية شعبية رغماً عني.. أنا لم أشاهد تلك الرسوم المتحركة بعد هذا اليوم، كما كنت أشاهدها في السابق!

بدأت أفسر كل ما يدور من حولي، وكأن بقعة الدم تلك كانت قبساً أهداني بصيرة مختلفة طالت حتى توم وجيري.. أفكر في ماهية سر الحياة معاً بينهما؟ التسامح.

فلو حملت القلوب الحقد والغضب لفنيت الحياة في محاولة الانتقام.. غريب كيف للحقد أن يطفئ فينا أحاسيس مشتعلة، ونتحول إلى أعداء بعدما كان الحب يتوهّج بيننا؟

لِمَ لَمْ يكتفِ الفأر بالانسحاب من حياة القط بلا أي اعتبارات، كما يفعل البشر الذين تهون عليهم علاقاتهم الطيبة بين ليلة وضحاها، فيقطعونها لأسباب واهية كان من الممكن أن تستمر باعتذار بسيط!

عجباً لمريم.. لا تتسامح، ولكنها تتحمّل.. لا تنسحب من حياة أبي، ولا تقدر أن تتعاطى مع البؤس الذي يحيط به! هل حقّاً هي مجبرة عليه أم أنها تخاف الانفصال عنه؟

أتذكر جيداً عندما تشاجرا في ليلة من الليالي.. بعد أن انهال أبي على مريم بالضرب طردها من البيت حافية القدمين، شبه عارية ومنفوشة الشعر، ولكنها لم ترحل ودخلت للمنزل ذليلة.

صوت الباب يشد انتباهي ولم يدخل منه أحد، كم أكره أن يُقطع حبل أفكاري، كنت أحلل العلاقة بين توم وجيري، وكيف لهما الحياة معاً؟ الإيثار...

ربما كان سر التعايش الغريب بينهما هو انعدام النرجسية.

حب الذات جميل، فلأنفسنا علينا حق، ولكن أن نعشق الذوات ونحبها حبّاً مرضياً تلك هي الأنانية المقيتة التي تستحيل بها مشاركة الحياة، أولئك لا يرون إلا أنفسهم، ولا يهمهم غير شخصهم.

من السهل على النرجسي ظلم الآخرين، وعلى الأناني استخدام الناس كسلالم يصعد على ظهورهم ليصل إلى مبتغاه.

تعود بي الذكريات عندما اختلفت أمي مع خالد، نظرت إليّ ببرود، وقالت له:

«خذ ابنتك وأعتق رقبتي».

في حين رد هو:

«سأنتقم منك بها!».

ترى، هل كانت أمي تقدمني على نفسها، أم أن خالد يستغلني بنرجسيّته ليؤثر في مريم؟

ربما الارتباط.

يبـدو أن العلاقـات بيـن تـوم وجيـري تتشـابه معنـا، فقـد نختلـف مـراراً وتكـراراً، بـل نتشـاجر مـع أعـز خلـق اللـه علـى قلوبنـا، ولكننـا مرتبطـون ببعضنـا بعضـاً، مهمـا بلـغ الجفـاء بيننـا نبقـى متماسـكين، ولـن يفرقنـا تافـه عابـر.. لا أفهـم مـن ينتظـر أقـل زلـة لينهـي أكبـر علاقـة!

حفظـت الكلمـة التـي دأبـت مريـم علـى قولهـا لخالـد فـي كل خـلاف بسـيط أو كبيـر، وحتـى أحيانـاً بـلا أي سـبب يذكـر.. طلقنـي!

قالت جدتي لي مرة:

«نحـن نتشـاجر دومـاً مـع مـن نحـب كثيـراً؛ لأننـا نثـق تمامـاً بـأن مـن يحبنـا لـن يتخلـى عنـا مهمـا كلـف الأمـر».

هل يثق خالد بحب أمي له؟ مستحيل!

هـذه المـرة أسـمع صـوت مـداس والدتي، وهـي تقتـرب منـي تنتشـلني مـن أفـكاري مجـدداً.. تقـف بينـي وبيـن التلفـاز تلقـي نظـرة علـيّ مسـتغربة.

تتفحـص بعينيهـا الوشـاح واللحـاف وكيـس المـاء السـاخن، ثـم تخـرج مسـرعة، وكأنهـا ملدوغـة تبحـث عـن جدتي.. تناديهـا.

هاأنـذا أحـاول أن أسـتجمع شـتات أفـكاري التـي تبعثـرت للمـرة الثانيـة!

بماذا كنت أفكر؟

سر العلاقة بين توم وجيري؟.. الثقة.

سواء كانت بالآخرين أو بالنفس.. فلن نجد علاقة تتأرجح بين جذب وطرد بهذا التطرف دون الثقة المتبادلة.. جيري على سبيل المثال يثق بقدراته، على الرغم من حجمه الضئيل، ويثق بأنه لو وصل إلى فم توم فسيخرج سالماً.. يثق بالقط مهما كان جائعاً، فالثقة هي الأوكسجين الذي تتنفسه العلاقات لتحيا.. أسأل نفسي كيف تستمر علاقة والديّ كل تلك السنين دون أي مظهر من مظاهر الثقة بينهما؟

كتبت أمي خطاباً إلى جدي مرة، ووقعت عليه بالمصادفة.

كتبت له في الرسالة تقول: إن السهاد أتعبها، تخاف من النوم، فهي مع خالد لا تضمن أن تطلع عليها الشمس، ولولا وجود جدتي معها لما بقيت معه.. ولم أعلم لماذا تخافه إلى هذا الحد ولا تثق به؟!

وبالحديث عن جدتي، أعتقد أن سر العلاقة بين توم وجيري هو الانتماء.

هما ينتميان إلى منزل واحد، على الرغم من اختلافهما واختلافاتهما، وعندما يتعرض هذا المنزل للتهديد بأي شكل من الأشكال، فهما يتحدان ويتعاونان كفريق للدفاع عنه.

أتذكر إحدى الأمسيات التي حاولت مريم فيها إغاظة خالد بقولها إنها ستأخذني معها، وتحرمه من الذرية التي

سيحتاج إليها عندما يبلغ من العمر عتيّاً، العصاة التي سيستند إليها عندما ينحني ظهره، ضحك بسخرية، وترك الموضوع بيدي، ثم خيروني.. مع من ستكونين يا أسماء.. ترحلين مع أمكِ أم تبقين مع أبيكِ؟

بكل ثقة وتحدٍّ اخترت الحنونة.. فأنا لم أشعر بالانتماء لأيٍّ منهما، ولا للبيت الذي يجمعني بهما، لم أنتمِ في حياتي إلا لجدتي.. صفعني خالد بسرعة، وحقدت عليّ مريم، شتمتني ولم تكلمني عدة أيام!

للمرة الثالثة يتشوش تفكيري.. هذه المرة أسمع همس الاثنتين معاً، ولكنني لا أستطيع معرفة ما يتكلمان عنه، لأنني أشاهد الرسوم المتحركة، وأفكر في توم وجيري وقناعتهما!

أسمع مريم تشهق.

ربما كانت القناعة سبب نجاح العلاقة بينهما، يكفيهما طعام جيد وبيت صغير، وعلاقة متينة لتكون حياتهما جميلة يستمتعان فيها بكل لحظة!

بالنسبة إلينا كان طعامنا شهيّاً، بيتنا نظيفاً، لكن العلاقات ليس لها عنوان واضح، وحياتنا لم تكن جميلة، لم تجمعنا ذكريات لطيفة نستمتع بها..

الغريب أن والديّ اتفقا على عدم الرضا في البيت الذي يجمعنا؛ فخالد يقول:

«ليحترق البيت بكم»، وترد أمي عليه: «يخرب بيتك.. بيت الفقر».

وكأن البيت سبب فشل زواجهما!

في لحظة أوشكت كل أفكاري أن تتهاوى عندما أوشك القط على التهام الفأر، ولكن مريم أوقفت كل شيء.. نادتني بصوت مرتعش، وهي تقف بالقرب من جدتي شاحبة اللون سألتني:

«بلغتِ؟».

لم أجبها عن السؤال.. هناك جزء مني يلومها على عدم تعليمي وتثقيفي.. لم أكن مستعدة، هي لم تهيئني وتجهزني لهذا اليوم الذي أخافني وأتعبني!

أنظر إلى جدتي التي تبتسم لي في حنان، فترد هي على أمي:

«بلغت بنتي، وصارت مرة».

* * *

الفصل الثاني

انتهتْ ليلة الانتحار ومضت.. لم أمُت!

فتحت عيني في صباح اليوم التالي.. ربما بعده بيوم.. أم هل دخلنا اليوم الثالث من بعد الانتحار؟

لا يهم.. فقدَت الساعات أهميتها بالنسبة إليّ، ولم يعد للزمن قيمة، بل الحياة بأكملها أصبحت خسيسة وحقيرة لا أحفل بها.. لقد انتهى العمر حينها، حينما حدث ما حدث ولم تكن محاولة الانتحار إلا محاولة الموت بلا فضائح، محاولة دفن السر داخل الجسد!

ليتني نجحت في المحاولة، فلا أتحسر على ما مضى من عمري لأعانيه، ولا أخاف مما بقي من العمر لأقاسيه، وما هي الحياة عندما تلفظها نفسك وترفضها روحك؟

مازلت في غرفتي بالمستشفى، أنظر إلى النافذة التي من خلالها فقط أتيقن من الليل والنهار، وددت لو يفتحها أحدهم، أشعر بالاختناق.. أريد أن أتنفس.. تعبت!

أتتبع ببصري حزمة الضوء التي تطل من النافذة الصغيرة بخجل حتى تنتهي إلى الأرض بالقرب من مريم التي غلبها النعاس على البلاط.. أطيل النظر إليها كيف تنام بسلام كالأطفال؟

تثير الشفقة، ولكني لا أقدر على التعاطف معها.. فاقد الشيء لا يعطيه، كما أنني لا أشعر ناحيتها الآن إلا بالكراهية.. أكره كل شيء، أكره الجميع.. أكره أمي!

كرهت ضعفها، انسحابها، أنانيتها، بل كرهت أمومتها، كما كرهت خالداً بكل تفاصيله، حتى طيفه الذي يقض مضجعي أكرهه، بل أكره ظلّه الذي يتبعه.. كل ما يتعلق بخالد هو مقيت، ولا يستحق إلا النبذ والاحتقار.

كرهت طفولتي، وكل ما أذكره منها.

عجباً! لماذا يتزوجون عندما لا يرغبون مشاركة حياتهم مع آخر؟ إلى متى يعتقدون بأن الغريزة تعالج الشذوذ، فيزوج الآباء أبناءهم المنحرفين بضحايا تفرح بالفستان الأبيض، ولا تعرف السواد الذي خلفه؟

لماذا يثمر فراشٌ يتنافر من ينام عليه، طفلةً.. ثمرة زواج قسري تعكس كل مشاعرهما السيئة لبعضهما بعضاً.. ما ذنبي أنا؟

مريم، آه يا مريم.

دخلت الممرضة بسرعة لتعلمنا بوصول الطبيب.. فزّت أمي واقتربت مني، دخل الطبيب وهو يقرأ ملفي، وما إن فرغ

حتى نظر إليّ نظرة وضيعة وابتسم!

ما باله؟

عندما تفقد الثقة بملاذك الآمن، فأنت تفقد الثقة حتى في انعكاس مرآتك.

نظرته المهينة لم ترحمني.. لا أعلم ما يخفي في نفسه، وما نيّته.. الحقير!

يتفحص بؤبؤ العين، ثم دقات القلب، وعندما ضغط على معدتي.. تأوهت متوجعة!

أشك فيه، أعتقد أنه آلمني عن قصد، فأنظر إليه في حقد، وأصرّ على أسناني، أكور قبضتي بقوة.

يسألني عن حالي، فأشكو له مرغمة، الدوار الذي يعصف بي، والنعاس الذي يغلبني منذ أن وصلت إلى الآن، لا ينظر إليّ، وكأنه لم يسمعني، ويتشاغل عني بتدوين ما يريده في ملفي. يتجاهلني؟

أحاول أن أسترعي انتباهه بتحدٍّ:

«لا أريد أن أنام!».

تلك الابتسامة الصفراء اللعينة مجدداً، أضيق ذرعاً، فأتهمه ناقمة بأنه وغيره من الأطباء يتعمدون تنويمي وإفقادي الوعي، لأنهم أغبى من أن يعالجوني، ولأنهم لا يستحقون شرف هذه المهنة الإنسانية.

تضع مريم يدها على كتفي لتهدئتي، فأدفع يدها بكل قوتي.. أنفعل وتتسارع أنفاسي وعوضاً عن الصمت أحاول أن أشفي غليلي بالصراخ، فأصفهم مرهقة بأنهم أطباء الوهم، شهادات مزيفة، بحوث مشتراة، أخطاء طبية قاتلة، لا يحق لهم حبسي في الجناح بما أنهم غير مؤهلين لمعالجتي!

هادئاً يستمع لي دون النظر إليّ.. يرفع أحد حاجبيه وهو لا يزال ممسكاً بالملف بين يديه، ويسألني في نبرة استهزاء:

«ما الذي يمنعكِ النوم.. هل كسدت تجارتك أم بارت بضاعتك؟ هبطت أسهمك أم وقعت أبراجك؟».

الآن تأكدت بأنه يسخر مني، هذا الأحمق صاحب الرأس الكبير الفارغ كان يستهزئ بي، فأرد عليه:

«ليس كل صاحب شهادة.. له عقل راجح! وليس كل مثقف.. فاهماً! وليس كل من يعمل في خدمة إنسانية.. إنساناً! وليس كل من يحترمه الناس.. يستحق الاحترام!».

بروده يقتلني.. لم يُعِرْ كلامي أهمية، ولا تزال ابتسامته عوجاء تثير السخط، تقترب منه مريم، أظنها تعتذر له، وهو ينظر إلى نتائج تحاليلي وقراءات الأجهزة.. أما أنا فلم أزل أختنق بقهري مغبونة.. لم يرتح قلبي بعد أنْ أردت أن ألقنه درساً في الأخلاق.

أرتب أقذع الكلمات سريعاً لأصفعه بها، وعندما كدت أن

ألقيها عليه.. سمعت ضحكة!

من يضحك في هذا الموقف.. هنا وفي هذا الوقت؟ أبحث عن الضاحك أنظر إليهم جميعاً، الممرضة واجمة، ومريم باكية، والطبيب بالشرح مشغول!

يرتفع صوت الضحك.. يقشعر جسدي.. أتلفت يمنة ويسرة، لا أحد غيرنا.. أنظر إلى السقف لربما أجد فجوة يَسْرِي منها الصوت، ماذا لو أن أحداً يختبئ تحت سريري؟ أضم اللحاف في خوف إلى صدري.. ينتبهون إليّ، الكل ينظر إليّ، لا أحد ينظر تحت السرير!

أغلق عيني وأفتحها عدة مرات، أريد أن أتأكد أن النوم لم يباغتني ويأسرني في كابوس، فأسمع مرة أخرى ضحكة داخل رأسي مجلجلة تهز عظيمات جمجمتي!

خفت وأمعنت التنصُّت.. كان الصوت صوتي، وتلك الضحكة كانت ضحكتي!

حقّاً، ماذا سأفوّت إن نمت؟ أي مباهج في الحياة لا أريد أن أغفل عنها؟ ما كمية السعادة التي تنتظرني، ويحزنني أن أنام وأتركها.. أضرب جبهتي براحة يدي.. يا لغبائي..

ثم بدأت الضحك!

أضحك على سذاجتي وبساطة تفكيري، أضحك على ضحالة استيعابي وفقر إدراكي، حتى صرت أضحك على

(أسماء) بكل قوتي وأقهقه رغماً عني!

الطبيب يقترب مني، ولكنني لا أستطيع أن أتوقف، لقد فقدت السيطرة على الضحك.. تصرخ مريم جزعاً، فتقع عيني الدامعة بضحكتي عليها.. الآن تخافين يا أمي بعد أن قضيتُ عمري خائفة؟

لا تخافي.. انظري إليّ؛ لقد عشت الخوف طويلاً، بل استحوذ الرعب عليّ منذ أن بدأت أعي ما يدور من حولي، في صحوي ومنامي، وعندما تعبت منه وقررت الانتحار منعوني، ومن حضن الموت رغماً عني انتشلوني!

لا تخافي.

مريم بدأت في البكاء بصوت مسموع، ومازلت أضحك على نفسي وعليها وعلى الحياة التي جمعتنا.. تبكين؟

ابكي يا مريم، واختنقي بغصتك، موتي يا أمي، فكم ليلة بكيت فيها على باب غرفتك ولم تحفلي، كم نُحت وصِحت ولم تأبهي.. ثم أتذكر تلك اللحظة فيعلو صوتي حتى يتغير على مسامعي..

صار نحيباً!

أنا الآن وفي هذه اللحظة لا أعلم ما خطبي، ماذا يحدث معي وكيف أتوقف.. كل شيء يتداعى أنا أنهار.. لم أفقد حياتي، ولكنني سأفقد عقلي!

أرى مريم تلطم فيزداد غضبي منها.. فقدت إيماني بأمومتها، ولا أثق بمشاعرها تجاهي فلا يحق لها أن تتصرف كأم قلقة، تحول نحيبي إلى صراخ وأسألها.. لماذا الآن؟

نشيج بل أزيز أقرب إلى العواء.. تصرخه روحي رغماً عني، حتى تجمّع حولي الكثير من الممرضات يمسكن بي بقوة.. يوجعنني، أحاول تحرير نفسي والتخلص منهن حتى أكاد أقع من على السرير الذي تبولت عليه.. أحاول أن أسحب أطرافي التي تؤلمني من قبضات أيديهن، إلا أن حقنة شكّ بها الطبيب وريدي.. اقتلعتني من الوعي، ورمت بي إلى غياهب الظلام!

* * *

عندما حِضت تغيرت، أعتقد أنه بالبلوغ انقلبت حياتي، فقد اختلفت وجهة نظري اتجاه ما أسمع، وانطباعاتي عما أرى، ومشاعري ناحية الكثير من الأمور، أولها والدي، على أنني أصبحت حساسة جدّاً، وعاطفية للغاية، إلا أن علاقتي بوالدي تبدلت!

ربما في مرحلة البلوغ وفورة الهرمونات بجنون.. تلك المرحلة المضطربة ما بين الطفولة والشباب يفقد المرء عقلانيته وحسه المنطقي، ويبدأ بالتفكير في أمور لم تطرق باله من قبل، بل إنه يشعر بمشاعر جديدة كما أشعر تجاه خالد!

وددت لو أقحمه في حياتي رغماً عنه وعن أمي لحاجة في

نفسي طرأت فجأة.. الحاجة إلى الأب إلى الأمان وللصديق.. فجأة شعرت بفراغ يؤزّمني، وصارت كل الدروس التي تتناول الأسرة وبالخصوص الآباء تتعب قلبي وتعكر مزاجي.

بغتةً، كثرت الأقاويل من حولي عن الأب، أم تراني الآن فقط أنتبه إليها وأسمعها؟

إحداهن تقول لي: إن أباً جيداً واحداً يغني عن عشرة معلمين.. عجباً، لم يعلمني خالد درساً حياتيّاً أستفيد منه في حياتي، ولم يكن مثالاً يحتذى بأي شكل من الأشكال فأتعلم من أخلاقياته وسلوكياته.

وأخرى أسمعها وهي تتكلم عن والدها بحب، وبأنه الرجل الذي يقدم السعادة بلا مقابل.. يالغرابة ما أسمع، فأنا لا أتذكر ضحكة خالد أو ابتسامته، وهو الذي لم يبذل في سبيل سعادتنا أقل جهد! كما أنه لم يسألني أبداً عن سبب بكائي متى بكيت!

وجوده بحد ذاته هادم للملذات، وقاتل للمسرات، ثم أقرأ بالمصادفة في لوحة المدرسة الجدارية بأن كل فتاة بأبيها معجبة.. حاشا لله، لم أعجب به قط، ولم أر منه تصرفاً واحداً أثار إعجابي!

وفي نفس اللوح كتبت إحداهن: الأب هو أول حب في قلب ابنته.. كلّفني التأكد من هذه المقولة بضع ثوانٍ فقط.. غير صحيح، فأنا ما شعرت بغير الخوف.

وتكتب أخرى تعبيراً عن الأب، وتقرأ على مسامعنا أنه الذي تطلب منه نجمتين، فيقدم لك السماء.. ترى ماذا قدم لنا خالد؟

حتى الأمان الذي ينشدونه دائماً في حضوره لم يكن متوافراً في بيتنا، بل على العكس كنا نطمئن في غيابه.. لم يكن أبي موجوداً في حياتي، ولن يكون أبداً.. لن أستند إليه، ولا أعتبره رجلاً أحتمي به!

بسبب خالد كنت أشعر بأنني منافقة.

أكتب سطوراً في أهمية الأب، وأحفظ قصائد أفتخر به وبحبه فيها، لكنني أعلم تماماً بأنني كاذبة، وأكتب عكس ما أبطن؛ لذلك قررت ألا أعير هذه الدروس أي أهمية بِحِكمها وقصصها وعِبَرها.

لم يعرف والدي كيف يصبح أباً، على الرغم من سنوات عمري.. حتى إنه شرح لي كلاماً بتصرفاته، كانت جدتي تكرره في أكثر من موضع، لم أكن أفهمه حينها، مقولة تناسب أمي وأبي معاً:

«الأم اللي تربي مو اللي تجيب».

فعلاً، ليس كل من رزق بطفل يصبح والداً أو يستحق هذا الطفل حتى!

سألت الحنونة مرة إن كان بالإمكان للأم أن تصبح أباً، فأجابت بالإيجاب.. استغربتُ، فقالت:

«بعواطفها وعنايتها وتربيتها والدة، وبمسؤولياتها وإنفاقها والتزاماتها والد، وبيننا الكثير من النساء القويات الصابرات هن الأب والأم معاً».

على الرغم من الحاجة إليه، هناك حاجز ما يقف بيني وبينه..

* * *

«ما بيني وبين الله حجاب.. دعوتي من صدري إلى الله.. يا الله».

تقولها أمي على سجادة الصلاة التي لا أعلم من أين حصلت عليها في المستشفى، أفتح عيني وأنظر إليها، وأستنكر جلستها في تلك الحالة، لأول مرة أراها تصلي.. ألا تخجل من الله؟

أتذكر أنني كنت ألجأ إليها بضعف وقلة حيلة؛ لأخبرها بما يحدث معي، عن شكوكي وتوجسي، إلا أنها كانت تدّعي انشغالها دوماً، تقاطعني وتطردني من غرفتها، فما تركت لي الفرصة لأتحدث.

ربما يا والدتي لو تحدثتِ معي بهدوء وتفهم عوضاً عن إخافتي وتحميلي ذنباً لم أقترفه بزواجك بخالد، ربما لو قرأتِ اعترافاتي الصغيرة التي كنت أكتبها، وأتركها متعمدة في غرفتك بدلاً من المجلات التي تقرئينها أكثر من مرة، وتقصين

منهـا مـا يعجبـك لتلصقيـه فـي دفتـرك الخـاص، ربمـا لـو أمعنـتِ النظـر في اللوحـات التي كنـت أرسـمها وأهديهـا لـكِ كل يـوم بـدلاً مـن صـور الفسـاتين وآخـر صيحـات الموضـة فـي الكتالوجـات المختلفـة.. لـكان الحـال غيـر الحـال، لربمـا أنقذتِنـي..

لاتـزال علـى السـجادة سـاجدة خاشـعة، تـرى هـل دعـت لـي أم عليّ؟ هـي سـتدعو لنفسـها فقـط.. فمريـم لـم تحـب إلا ذاتهـا!

يحتضنني النوم بحنان.. فأنام.

* * *

بـدأت أعتـاد علـى دورتـي الشـهرية، وأتعامـل مـع الأسـبوع الشـرير، كمـا أحـب أن أطلـق عليـه، بـكل تغيراتـه واضطراباتـه بسـهولة، لـولا مزاجـي المتقلـب وتشـنج أعصابـي!

كنـت في الرابعـة عشـرة، عندمـا رجعـت مـن الحمـام للصـف، لتحولنـي المعلمـة إلـى إدارة المدرسـة بصحبـة حقيبتـي.. سـأعود إلـى المنـزل؟

جهـزتُ حقيبتـي وأغلقتهـا علـى كتبـي، ثـم اتجهـت إلـى مكتـب الاختصاصيـة الاجتماعيـة...

يا للصاعقة!

كان خالـد حاضـراً لأول مـرة فـي حياتـه.. تصفعنـي المشـاعر مـن كل حـدب وصـوب، لا أعـرف كيـف أحددهـا.. بعضهـا

خائف والآخر مستغرب، بعضها سعيد بوجوده، والآخر كان يودّ لو أمسك بيده لأريه لهن، ليعلم جميعهن أن لي أباً يهتم ويقوم بشؤوني، كما لهن!

ما إن خرجنا من المدرسة حتى سألته إن كان كل شيء على ما يرام.. لم يجبني، بل هز رأسه وأشار إلى السيارة لأصعد إليها.

في ذاك اليوم اصطحبني والدي معه لأول مرة في نزهة مفاجئة، لم تعلم بها أمي ولا حتى جدتي، لم يبلغهما بأنه سيخرج برفقتي، ربما لو كانت الظروف مختلفة لفرحت بهذه النزهة كأي بنت، ولكنني جفلت، إذ لم أعرفه إلا متشاجراً، صائحاً زاعقاً، وكأن الأبوّة لا تليق به!

لم يتكلم معي طوال الطريق، ولم نتبادل الحديث، بل حتى إنه لم يشغل المذياع، فما كان بيننا حينها صمت مطبق وصوت الشارع.

كان عابساً مقطّب الجبين ومستاء كعادته، والغريب أن ذلك أثار قلقي، والكثير من المخاوف.. بدأت أحاسب نفسي إن كنت قد ارتكبت خطأً يستدعي معاقبتي، ماذا لو كان سينتقم من مريم بوساطتي، كما يقول، أتصور السيناريو الأسوأ وأتوقعه، فأتوتر وتسرع ضربات قلبي، وعندما وصلنا إلى متجر الألعاب.. ازداد خوفي!

فما يحدث ليس من طباعه، تلطّف مزعج مفرط يذهب في المبالغة إلى حد التملق، وعلى الرغم من أن متجر الألعاب بدا لي جزءاً من الجنة، لطالما كان حلماً جميلاً بالنسبة إليّ، فنادراً ما دخلته وابتعت منه، إلا أن حسّاً مزعجاً جثم على صدري.. لا أعلم إن كان مما يحدث بسبب الدورة الشهرية أم لا.

خالد لم يكن في وعيه.

دخلنا معاً إلى المحل وبين رفوف الألعاب ارتعشت، لم أمد يدي ولم أتفحص أي لعبة، قاومت كل تلك الألوان الزاهية من حولي، وكل تلك الدمى اللطيفة، الموسيقى ورائحة البلاستيك!

مكابرة غريبة ترفض الاعتراف بالطفلة التي بداخلي في هذا السن، إلا أن الصغيرة التي تعيشني تأبى إلا أن تلهو قليلاً.. دغدغ خالد بأخذي إلى المتجر الطفلة المسجونة في روحي، فانطلقت تعبث بي حتى نجحت وخطفت بصري عروسة بشعرها الذهبي المتموج، بفستانها الأزرق وشفتيها الورديتين، فمددت يدي أتفحصها ومسحت على وجهها بانبهار.

رمقني خالد حينها بنظرة كدت أن أختنق منها بلعابي، فسحبت يدي كالملدوغة، وقررت أن أقطع أي رابط يمكن أن تمده دمية بيني وبين أبي، إلا أنه اشترى العروسة الجميلة رغماً عني.

شيء من التناقض أسرني، داريت عنه فرحة لم أتوقعها تتراقص في جوفي.. متى كانت آخر مرة اشترى فيها لي شيئاً أرغب به؟

قد تكون هذه المرة الأولى!

لن أحفل بذلك، فأنا راضية تمام الرضا عن دميتي الشقراء الجميلة التي كنت أسترق النظر لها، وهي على حجري في طريق العودة إلى المنزل، ابتسامة تلك العروسة كالضوء في نفسي.. تبهجني!

أعدّ الدقائق التي تفصلني عن البيت، أحسب المتبقي من الوقت ليتسنى لي اللعب بعيداً عن عين خالد في غرفتي، بدا لي الطريق طويلاً، وكأنه بلا نهاية، تعبت منه ومن تقلصات رحمي.. وعندما وصلنا إلى الحي كانت الساعة قد قاربت الثالثة بعد الظهر.

جدتي تقف وسط الشارع تعض على طرف عباءتها مرتبكة، ما إن رأتني بخير في سيارة والدي حتى تنفست الصعداء، في حين كانت تجلس مريم على الرصيف تسند ذقنها إلى كفّ يدها تنظر لنا ببرود، ثم دخلت إلى المنزل، وكأن جلوسها هناك مؤازرة لجدتي أو تأدية واجب.. ماذا لو لم تهتم باختفائي، وقد أجبرتها الحنونة على انتظاري؟

هالني شحوب جدتي، ففتحت باب السيارة مسرعة،

وركضت إليها لأريها ماذا اشترى لي والدي، رفعت لها العروسة في الهواء أمام عينيها الخائفتين، وأنا أبتسم.. أريد أن تذيب ابتسامتي جبال القلق التي تضخمت بها.. كعادتها تحب أن تُكبّر الأمور، لابد أنها شكّت في أن مكروهاً قد وقع لي كحادث مروري أو حتى جريمة قتل!

سألتها مرة عن سبب مبالغتها في ردّات الفعل فقالت:

«دأبت على أن أتوقع الأسوأ، حتى أتقبل السيئ.. حتى لا أجفل.. حتى لا أجزع.. فقد تجرعت السوء حتى صار يجري في جسدي مجرى الدم!».

بقيت جدتي تنظر إليّ ساكنة لوهلة، ثم مسحت عرق جبينها بالعباءة، ومسحت على رأسي بحنان، ثم نظرت إلى خالد وهو مشغول بأمر ما في سيارته، لقد كنت سعيدة بالهدية غير المرتقبة، وبتصرف والدي اللطيف، وبالشعور بالانتماء إلى أسرة أقرب من أن تكون طبيعية...

صفعة..!

باغتني بها خالد، فتبخرت مشاعري، صفعتُه المفاجئة، شلّت أركاني وأسكنت أطرافي.. ثبتت جسدي بالأرض، واعوجت ابتسامتي التي كانت لا تزال صامدة على وجهي!

كم أشعر بالبرد.. ابتعد عنا، وهو يأمرنا بتنظيف الفوضى التي أحدثتها أنا من خلفي، وقال بصوت عال:

«نجسة كأمها».

أشفَقَت عليّ جدتي، ولم ترض بتلك الصفعة فلحقت به تصرخ به وتنهره، أما أنا فمن شدة الصدمة نظرت إلى عروستي، وقد سكتَ العالم من حولي، وكأنني صماء لا أسمع شيئاً.

أرى الحنونة تتجه إلى سيارة خالد تعاين بقعة الدماء التي تركتها من دون قصد على كرسي سيارته، حيث جلست، فوق الإهانة والألم شعرت بالخزي.

اتجهت إلى سلة القمامة الكبيرة، ورميت بداخلها دميتي الجميلة بهدوء، وبقيت ليلتها أراقب الشارع في انتظار سيارة البلدية تزف عروستي الشقراء إلى مكب النفايات مع ما تبقى من آمال عقدتها ظهيرة ذاك اليوم!

* * *

«اليوم.. هل ستتمكن من التحقيق معها اليوم؟».

فتحت عيني على صوت الطبيب، وهو ينصح المحقق بألا يحادثني اليوم، ولا يسألني عن أي شيء.. على كلامه أنا أعاني انهياراً عصبياً حاداً..

أنظر إليهم وهم يناقشون وضعي، وأتذكر عندما سألتني زميلتي سارة بفضول طفولي، كيف علمت أمي ببلوغي؟ بما أنها كانت من الموضوعات المثيرة التي لا يتكلم بها إلا الكبار فقط، فاستنكرت!

قالـت: إن الأمهـات عليهـن توعيـة بناتهـن وتعليمهـن فـي سـن مبكـرة كل هـذه الأمـور، لحمايتهـن مـن الخـوف، ومـن الاسـتغلال، بـل حتـى مـن الأغـلاط التـي تُكلـف البنـات عذريتهـن!

لـم أعـرف مـا تقصـد، ولـم أفهـم مـا تقـول، اكتفيـت بالنظـر لهـا فـي بلاهـة، فاسـتطردت فـي الشـرح قائلـة: لقـد دأبـت أمـي علـى تعليمـي ارتـداء المناسـب مـن الثيـاب فـي كل مـكان وكل زمـان، منـذ أن كنـت طفلـة فـي الثالثـة مـن عمـري..

لا ترفعـي ثيابـك، لا تكشـفي سـيقانك، لا تظهـري لحمـك.. ثـم كبـرت الـلاءات مـع كبـر البنـت، لا تسـمحي لأحـد بـأن يلمسـك فـي أي مـكان، لا تلعبـي مـع الأولاد، ولا تحتكـي بهـم، لا تنامـي مـع أحـد ولا تشـاركي أحـداً لحافـك، لا تسـكتي عـن أي متحـرش، ولا ترضخـي لتهديداتـه..

لم يحذرني أحد ولم يوعني.

يبـدو أن مفعـول تلـك الإبـرة اللعينـة لايـزال قويّـاً.. كل مـا حولـي يـدور.

يدور.

يدو.

يد.

* * *

مضى يومان على اختفاء خالد!

أضعف جدتي الصيام في شهر رمضان المبارك عام 1998، وزادها تعباً انهماكها في إعداد طعام الإفطار لساعات في مطبخ بلا تكييف.

لقد كانت مريم تتهرب من الكثير من المسؤوليات؛ لأنها ترفض القيام بواجباتها لخالد، بما أنها لا تحظى بحقوقها منه كما تقول، فتضطر جدتي إلى أن تضاعف عملها حتى تستطيع أن تخدم الجميع بحب، وكنت أساعدها على ذلك لأكفّر عن تصرفات أمي!

وعلم الرغم من إرهاق جدتي وانشغالها، إلا أنها لم تكفّ عن التفكير في غياب خالد، ولم تقوَ على أن تكبح جماح قلقها بعد يومين من اختفاء ابنها.

ارتدت جدتي عباءتها، ومشت تعرج بأقدامها المتورمة إلى بيوت الجيران والدواوين، حتى وصلت إلى المسجد، لعل أحد المصلين يدلها عليه، لم يعلم أحد من أبناء المنطقة شيئاً عنه!

تقف وحدها تحت أشعة الشمس في الشارع، وهي صائمة تنتظر أي سائق يحنّ قلبه عليها، فيأخذها إلى المستوصف لتسأل إن كان قد مر عليهم، ثم إلى المستشفى لعله كان مريضاً أو مصاباً.. لكن لا أثر لخالد.

عـادت جدتـي إلـى البيـت خاليـة الوفـاض.. تمشـي منحنيـة القامـة!

لـم تكلـف مريـم نفسـها أن تسـأل عنـه، أو تبـدي اهتمامـاً أو تعاطفـاً مـع جدتـي علـى الأقـل، بـل علـى العكـس كانـت مبتهجـة، مرتاحـة، وتبـدو عليهـا السـعادة، خمسـة عشـر عامـاً لـم أرَ فـي علاقتهمـا إلا البغـض.. أشـد البغـض!

فـي اليـوم الثالـث مـن غيـاب خالـد صحـوت علـى صـوت أسـمهان!

لـم تغـنِّ أسـمهان فـي بيتنـا أبـداً، وهـي مطربـة أمـي المفضلـة التـي تحفـظ كل أغانيهـا.. تقـول: إن والـدي منعهـا مـن سـماع الموسـيقى التـي تحـب، بذريعـة ألا يحـرك الشـيطان غرائزهـا، أو يسـتثير عاطفتهـا فـي غيابـه، وكأن حضـوره يفـرق عـن غيابـه!

يخـاف والـدي أن تفتقـد مريـم الرجـل فـي حياتهـا، وأن ترغـب فـي الحـب الـذي يخافـه، يخـاف أن يشـعل العشـق نيـران الحاجـة والرغبـة، فتتـرك خالـداً فـي سـبيله، لـذا حطـم كل مذيـاع فـي البيـت، حتـى الـذي كانـت تواريـه عنـه لتسـجل بـه رسـائل صوتيـة ترسـلها إلـى أهلهـا، ولـم يعلـم بـأن مريـم لـم تحفـظ أغانـي أسـمهان فحسـب، بـل حفظـت حـوارات أفلامهـا.

ما الحب؟

ذاك الصبـاح تسـلطنت أسـمهان فـي بيتنـا، وارتفـع صوتهـا

شـجيّاً يمـلأ صـداه الحـوش، ويطـل علـى الملحـق باسـتحياء حتـى أثـارت اسـتهجاني، وقلـت لهـا:

«ماما.. نهار رمضان والناس صيام».

لـم تتجهـم ولـم تَجِـمْ وتمـد بوزهـا كعادتهـا، لـم ترمقنـي بغضـب مثـل كل مـرة تسـمع فيهـا منّـي مـا لا يعجبهـا.. لـم تنهرنـي، بـل بحركـة راقصـة أمسـكت أرنبـة أنفـي تحركهـا يمنـة ويسـرة، وهـي تغنـي مـع أسـمهان.. تمامـاً كمـا كانـت فـي بيـت جـدي!

تركتهـا وحدهـا تعيـش نشـوتها، وبحثـت عـن جدتـي التـي وجدتهـا جالسـة علـى الأرض متربعـة، وعلـى الحائـط مسـتندة، شـعرها منكـوش ومنفـوش، وعلـى وجههـا خـط دمـع جـرف معـه كحـل إثمـد مـن عينيهـا إلـى شـفتيها.

جلسـتُ أمامهـا بهـدوء فنظـرت إلـيّ مطـولاً، ثـم تأوهـت بحرقـة، فـي عينيهـا أمـواج الشـفقة والرثـاء تتصـادم عاتيـة عاليـة:

«أي مسـتقبل ينتظـركِ يـا ابنتـي؟.. سـيتنمرون ويشـمتون بـكِ؛ لأن والـدكِ مسـجون».

أخبرتنـي أن والـدي حكـم عليـه بالسـجن لتحرشـه بأحدهـم، ولكنهـا لـم تشـرح لـي مـا نـوع التحـرش؟ ومـن هـو أحدهـم، تصلنـا الموسـيقى.. أسـمهان تغنـي لترقـص مريـم.

* * *

ثرثرة امرأة غريبة مع مريم توقظني من النوم!

سيدة كثة الحواجب ترتدي عباءة كتف وحجاباً أبيض، وعليها عباءة رأس بالأحرى عباءتان فوق بعضهما، وتمسك بيدها كتيبات.. لا أتبين هويتها، وكلما أنصت لها تتضح لي كلماتها..

داعية أو واعظة، لا أعلم أيهما بالضبط، ولكنها إنسانة متدينة، قد تكون من العاملات في المستشفى أو أنها تتطوع لزيارة المريضات لتتلو عليهن بعض الآيات والأحاديث النبوية، لتصبرهم على الابتلاء والمرض.

أخبروها بحالتي، فجاءت متحمسة، لابد أنها متشوقة لتنصحني وتخوفني من عواقب الانتحار والخلود في جهنم، وأنه لن يترحم عليّ أحد.

وكأنهم رحموني عندما كنت حية أرزق!

تقول في بجاحة:

«لا وجود للأمراض النفسية، بل هي ضعف إيمان بالله، فلا يكتئب مؤمن ولا يضطرب تقي.. إنها خزعبلات كفار!».

يا لعقليتها! هل حقّاً هناك من يصدق هذه الترهات؟

لقد ألغت علم النفس تماماً، وطمسته بغير حق، ولو كانت أسرتي تفقه أبسط أمر في الصحة النفسية لتلقت الإشارات التي كنت أتعمدها، حتى تصل لهم، فيشعروا بي، ويكتشفوا أمري، ثم يخلصوني!

أتذكر أنني دأبت على رسم وحش يلمسني، حيث لا يجب عليه لمسي، وفي أوضاع غير مناسبة، أتذكر أنني رسمت دموعاً أكبر من وجهي، وأهديتها للجميع لعلهم يترجمون تلك اللوحات التي رسمتها بأسى، ولكن هيهات.

الغبية تثرثر بلا انقطاع.. خفت أن تنتبه لي فتأتي إليّ.. ادعيت النوم، فنمت!

* * *

خرج والدي من السجن لنعود نحن إلى زنزانته!

لم أزره طوال العام الذي قضاه محبوساً، بل لم أشتق إليه، وكرست وقتي في عقد المقارنات في حالة وجوده بيننا وحالة غيابه عنا، ورجحت كفة الأخيرة في كل المقارنات، كما أنني في هذه السنة التحقت بكل النشاطات المدرسية الرياضية، والتي كان يمنعني خالد منها بحجة أنها ستجعل مني فتاة قوية، والرجال لا يحبون القويات!

في هذا العام كانت مريم قد ازدادت جمالاً، خصوصاً وأنها اكتسبت بعض الكيلوغرامات.. تأكل وتنام أفضل، وصارت تأخذ من غرفتها مكاناً للراحة والاستجمام تعيش بها كما يحلو لها، البعد عن خالد يلائمها.

أما أنا، فقد استطعت أن أحفظ من جدتي آيات قرآنية أكثر مما كانت تحفظ لي، وذلك أسعد الحنونة وأفرح قلبها،

خفف عنها مصابها في ابنها الوحيد الذي، ولسبب لا أستطيع أن أتخيله، كانت تعدّ الأيام والليالي حتى يفرج عنه.. كل القلوب تتغير إلا قلب الأم فهو جنة دائمة.

خرج خالد، فعادت لي الكوابيس، رجعت ضحكة جدتي، وضاعت روح مريم.

للأسف، بعد إطلاق سراحه بشهرين دخلت أمي المستشفى لتعالج من مرض تناسلي فتاك، نقله لها والدي بعد إصابته به وهو في الحبس.. أفهم بعض ما أسمع وأخجل!

ازداد بغضي له، فلم يطلنا منه طوال حياته إلا الأذى البليغ، وكأنه خلق ليتعس الآخرين، وكلما بكت أمي استحياء من نظرات الناس، من غمزاتهم ولمزاتهم التي تتهمها في شرفها، بسبب ذاك المرض، حقدتُ عليه أكثر.

عار ينتقل منه، نعاني نحن منه ومن ويلاته!

الليالي التي نامت فيها أمي في المستشفى متلثمة بحجابها، حتى لا يتعرف إليها أو يشمت بها أحدهم، كنت أنامها أنا في أحضان الحنونة، وفي قلبي نار متقدة على حال أمي ووضع أهلي وأنا..

أشمّ رائحة جدتي، أتنفسها وهي تدندن لي بحشرجتها التي أحب، تلعب في شعري بعطف وحنان، خصوصاً بعد أن طردتني أمي من المستشفى، عندما زرتها وأنا أحمل وردتين هي كل ما استطعت شراءه بنقودي!

تقول جدتي إن أمي أخرجتني من الغرفة بعنف، لم تطردني إلا خوفاً عليّ من التقاط عدوى ما، وهذا أمر لا يقبله عقلي، فأنا ما عدت طفلة، فإن أخرجتني خوفاً، فما سبب صدودها وامتناعها عني؟

مريم تُحمّلني خطأ أبي، هي دوماً كذلك.

أذكر في مرة كنت أعبث في أغراض خالد، فكسرت غرضاً منها بلا قصد، أكلت مريم ثمن عبثي علقة ساخنة؛ لأنها سمحت لي بالدخول إلى الغرفة، ولمس حاجياته.. فصبت جام غضبها عليّ، أمسكتني بقوة، وهي ترتعش من شدة الغضب، تضغط بيديها لتوجعني متعمدة، وهي تهزني، أخبرتني بأنني سبب شقائها، ولم أكن إلا نذير شؤم وسوء حظ لاحقها على شكل طفلة.. أنا دعوة أم غير راضية على ابن عاق، واستجاب لها الله.

توجعني في الصميم وأسامحها، كلما بدر منها ما يؤذيني أرتب لها الأعذار، وأختار منها واحداً يخرس ضوضاء روحي.

عندما طردتني من غرفتها في المستشفى، ولا تزال ورودي في يدي، كدت أنفجر بكل ما شعرت به، وما شفع لها إلا نواحها الذي قطّع نياط قلبي، وتلك الحكة الهيستيرية التي كانت تصيبها بين الفينة والأخرى، والتي لا تهدأ إلا بعد أن تجرح لحمها من قوة الخدش!

لم يكن حالها بعد خروجها من المستشفى أفضل، فقد

اكتأبت، وصارت تصرّح بلا خجل بكراهيتها للجميع، أوّلهم نفسها، ثم أضربت عن الطعام، واعتزلت الكل، حتى بعد شفائها تعاني مما لاقته وشعرت به، لولا تدخل جدتي الحنونة وإلحاحها، لماتت أمي جوعاً.

واستمرت تتجرع الويلات حرجاً، وكأنه لا نهاية لتعاستها، كم كانت تتمنى لو تنشق الأرض لتبتلعها عندما تطلب المساعدة في وضع المراهم والمطهرات أو إقحام التحاميل النسائية في مواضع لا تستطيع هي الوصول إليها.

في يوم من الأيام لم تكن جدتي حاضرة لتنقذها من حرقان أصاب موضع عفتها، فاضطرت مرغمة إلى أن تسألني، ولسوء حظي طلبتْ مني مساعدتها، لقد كانت اللحظة قاسية عليّ أنا.. فما بالك بها؟

تلك الدقائق حُفرت في رأسي كحدث لا أنساه ما حييت.

تستلقي على سريرها باستسلام تغطي وجهها بيديها بهدوء، لم أعلم ما علي فعله، ولا أدري كيف أستطيع أن أخفف عنها.. تلكم قلبها بقبضة يدها عدة مرات، وهي تتساءل باكية:

«لماذا لا يتوقف هذا اللعين عن الخفقان».

علمت بأنها تتمنى الموت ولكنها تخشاه.. الجبانة!

في تلك اللحظة قررت أن أصبح طبيبة حتى أستطيع

علاج الضعيفات.. المكسورات ومن هن على شاكلة مريم.. إجهاض سابق، ومرض لاحق، وكل ذلك بسبب رجل لا يخاف الله!

أفرغ من مسح الموضع بالمرهم، فتهرع أمي لتطهر يدي خجلة، وافتقدت عينيها، فلم تتلاقيا مع عينيّ منذ ذلك اليوم.

* * *

من يمسح على يدي؟

تشتاق روحي للحب، جدتي الحنونة فقط من كانت تقدم لي الحب والرعاية والاهتمام..

أيعقل أن تكون هي من تمسح على يدي؟

أفتح عيني.. أدور بها بسرعة، فأجدني مازلت في غرفتي بالمستشفى ولا تزال الثرثارة ذات العباءتين تجلس معنا، تقرأ من المصحف، أما مريم فقد كانت تمسك بيدي.. هي التي كانت تمسح عليها، فجفلت وسحبت يدي بقوة من بين يديها!

من الطبيعي أن أخاف، فأنا لم أعتد هذا اللطف والودّ منها، ولن أقبل به حتماً في هذه الحالة التي أوصلتني إليها.. حسناً ليس تماماً، ولكن قطعاً كان لها دور عظيم في ما آلت إليه الأمور!

ربما أكون على حق.. وقد أكون مخطئة.

اقتربت الثرثارة مني ولم أبادلها الابتسامة، تربت على كتفي

بحميمية، وكأنها قريبة لي وتعرفني، حاولت أن أبعدها عني قدر المستطاع، فأبقتْ، متفهمة، مسافة مقبولة بيني وبينها.

تنظران إلى بعضهما في بلاهة، فأشيح ببصري عنهما إعلاناً مني عن عدم رغبتي في الحديث معهما، مريم سحبت كرسيها للخلف، واكتفت بمراقبتنا من بعيد، في حين سمعت الثرثارة تتلو عليّ آيات من سورة الطور:

[وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا]

شهقت، كأن روحي تنازعني، وشهقت..

أمنع نفسي من البكاء أمامهما، كأنني أحفظ ما تبقى من ماء وجهي، ولكنها تأبى أن تتوقف، فتلت عليّ وهي تبتسم بعضاً من سورة البقرة:

[وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ]

لوهلة فقط استطعت أن أتماسك، ولكنني لم أحتمل، فصرخت ملء فمي، صرخت صرخة مجلجلة مدوية أخافت الثرثارة، وكادت تقع من على كرسيها.

أصرخ احتجاجاً واعتراضاً، صرخت مضطهدة، صرخت مقهورة، أشعر بالظلم.. طاهرة، شريفة، عفيفة، لم أرتكب حراماً في حياتي، فلِمَ ألقى ما لاقيت؟

أُغلق فمي بيدي الاثنتين، خفت من عدم رضايَ بقضائي، خفت أن أفقد إيماني، فأنا أحب الله، خفت أن أغضبه.. تناقضات.. تعارضات.. تضاربات.. وتغلّب الصراخ عليّ.

أشعر بأنني لو لم أصرخ لمتُّ كمداً.. أصرخ بلا هوادة، وكأنني ملسوعة.. ملدوغة.. ممسوسة!

لم أزل مؤججة.. لم ينفس كل هذا الصراخ عني شيئاً، وبداخلي نار متفجرة.. كل ما فيّ يحترق، شققت ثيابي وصفعت نفسي وأنا أصرخ.

«أستغفر الله.. ليتني مت.. أستغفر الله».

دقيقتان فقط وإبرة أخرى تخرس ترهاتي، وتفقدني وعيي!

أنا أحب الله.. أنا أحب الله.

* * *

في صيف عام 1999...

كنت أدرس في الصف الثاني بالثانوية العامة، حين تم توقيف أحَبِّ المعلمات وأقربهن إلى قلبي عن العمل، حنان التي تدرسني مادة العلوم، تم تجميدها وتحويلها إلى التحقيق، قد تعود منه إلى مختبراتها أو تُفصَل!

قيل إن (أبلة حنان) طلبت تدريس الثقافة الجنسية بطريقة منظمة تتناسب مع مجتمعنا الإسلامي والعربي، على الأقل

بعض الموضوعات المهمة التي تمس المراهقات في هذه المرحلة الحساسة، والتي قد تغير من حياتهن كالشذوذ، التحرش الجنسي وكيفية الحماية منه وكيفية التصرف في حال وقوعه، كذلك العادة السرية وأضرارها، الحمل، الإجهاض والولادة، والأهم الانحرافات الجنسية: الوقاية، الحماية، والعلاج، مع الاحتفاظ بهويتنا وأخلاقنا.

فتمت ترجمة طلبها هذا على أنه دعوة للقاصرات إلى الفسق والفجور، اتهموا معلمتي الفاضلة بنشر الرذيلة؛ لأنها حاولت تثقيف طالباتها في موضوعات يعتبرها معظمهم.. عيباً!

لم يقبل أحد بثقافة العيب، فتمت معاقبة معلمتي التي حاولت توفير مساحة آمنة للسؤال والتعلم، خصوصاً أن الفضائيات غير المشفرة والإنترنت بمحتوياته الإباحية التي يمكن الاطلاع عليها بكبسة زر بدأت تدخل بيوتنا جميعاً، إلا بيتي أنا، فقد رفض خالد أن نمتلك حاسباً آليّاً، أو محطات فضائية، على الرغم من إلحاح والدتي عليه لتكون أقرب من أهلها وأسهل في التواصل.

لكنّ رفضه لم يشكل لها أي عائق، لم يستطع أن يمنعها، إذ كانت جدتي تصطحبنا إلى بيوت الجيران، وتستأذن منهم لتجري مريم مكالمات مطولة مع عائلتها بالصوت والصورة، وكنت أشاركها ذلك.. بفرح.. فرحة غريبة ليس بسبب سعادة

أمي أو التواصل معهم، بل بسبب التحايل على خالد والنجاح في إنجاز أمر منعنا منه!

هل هذه هي المراهقة؟

قرعت أجراس الاختبارات النهائية للصف الثاني الثانوي لتشحذ طاقاتي، وتوقظ التوتر في نفسي.

كنت قد هيأتُ نفسي لاختيار تخصص القسم العلمي، حتى أحقق حلمي، وأدخل كلية الطب، كما نذرت نفسي، وأكرس حياتي لإنقاذ الفتيات والنساء الضعيفات المضطهدات، حتى لو أعالجهن بالمجان!

لقد كنت واحدة من أوليات الطالبات في المدرسة، امتياز مع مرتبة الشرف، فأنا لا أقبل إلا بالعلامات الكاملة، ربما لو كانت أي فتاة أخرى لتعثرت بسبب ظروفها الاجتماعية، ولجلست في بيتها بلا تعليم تنتظر زوج المستقبل الذي سيخلّصها من معاناتها.. ومن والدها وتفكك أسرتها، ولكنني على العكس تماماً.

كانت المدرسة هي المتنفس الوحيد بالنسبة لي، وانشغالي عما يرتكبه والدي في البيت من موبقات ومنكرات بالمذاكرة، حفظ لي عقلي من الجنون، إضافة إلى أنني كنت أسعد جدتي التي كانت تفاخر صديقاتها وجاراتها بدرجاتي العالية.

ابتسامة رضا منها تكفيني عن كل التشجيع، هي الدافع

وهـي المحفـز، كمـا أنني لـم أكـن أرغـب فـي تكـرار أي خطـأ وقعـت فيـه أمـي.. لا أريـد أن أكـون نسـخة أخـرى مـن مريـم.

كانـت هـي السـنة التـي أختبـر فيهـا قدرتـي علـى دراسـة التخصـص الـذي اخترتـه، وأتحـدى بهـا قدراتـي، فنظمـت كتبـي ومذكراتـي، ورتبـت الملخصـات والتقاريـر، حتـى إننـي جهـزت أوراقـاً وأقلامـاً، والقلـق يلتهمنـي.

تقـول المرشـدة الأكاديميـة: إن اختبـاراً استُجد يسـمى «اختبار القـدرات»، وسـيلعب دوراً لا يسـتهان بـه فـي انخفـاض النسـبة التحصيليـة أو ارتفاعهـا، مـا يؤثـر فـي فـرص القبـول فـي أي كليـة يختارهـا المتعلـم لاحقـاً، هـو المحـك فـي تحقيـق الحلـم الوحيـد الـذي أطمـح إليـه، وهـذا مـا زاد الضغـط النفسـي والجسـدي عليّ، خصوصـاً فـي الإجـازة التـي تسـبق الاختبـارات.

جنّـدت حواسـي جميعهـا للتركيـز، وقضيـت جـلّ وقتـي فـي المذاكـرة، حتـى إننـي كنـت أول مـن يصحـو مـن النـوم، وآخـر مـن يخلـد إليـه.

رتبـت لـي الحنونـة جـدولاً بسـيطاً يعيننـي علـى الدراسـة، يتركز التوقيـت فيـه علـى الصلـوات الخمـس، كمـا تراه مناسـباً ومبـاركاً!

يبـدأ يومـي مـن بعـد صـلاة الفجـر، فـأدرس حتـى تشـرق الشـمس، بعدهـا أتنـاول طعـام الإفطـار، ثـم أذهـب لأكمـل مـا بـدأت حتـى صـلاة الظهـر، حيـث أسـتريح وربمـا أنتهـز

قيلولة قصيرة، ثم أشاركهم وجبة الغداء، ثم أقرأ قليلاً من الملخصات والدفاتر حتى صلاة العصر، ومن بعدها أدرس بشكل متواصل حتى صلاة المغرب، ثم آخذ قسطاً من الراحة بشرب كوب من الشاي أو القهوة، وأنا أتصفّح بعض الملزمات، ثم تأتي صلاة العشاء، ولا ينتهي يومي أو ينقطع نشاطي الدراسي حتى منتصف الليل.

تبقى جدتي في انتظاري تقاوم النعاس بصعوبة، تحاول أن تسهر لتزويدي بالوجبات الخفيفة والسكاكر والمشروبات طوال الوقت، كما أنها تطمئن عليّ، وتتأكد من أن كل شيء على ما يرام.

أما مريم فتتصرف بغرابة.. تمر عليّ مرور الكرام، وتكتفي بأن تذكرني:

«لا جدوى من كل ذلك.. لما كنت في سنك كنت أحملك بيدي».

وعندما تراني منهمكة في الدراسة تطيل النظر إليّ، ثم تقول لي بصوت غريب:

«لطالما تمنيت أن أكون معلمة.. لولا أبوينا.. والدك وأبي.. كنت آمل أن أعلّم الأطفال دروسهم، ولكن الحياة لقنتني دروسها لأتعلم».

صرت لا أفرق فيها بين الغبطة والحسد، فقد كانت أهملتني

تماماً، وأقصتني من حياتها، إلا عندما تراني أدرس أشعر بها تتعمد أن تقاطعني، وتشتت تركيزي، وتطلب مني أن أرتب سريري.. أكنس المطبخ.. أمسح الأرضيات.. وهكذا، ولا مناص من الطاعة؛ لأن عدم امتثالي لأوامرها يجعلني أحمّل جدتي هذه الأعمال المنزلية، وهذا أمر لا أقبله، ولا أرضاه.

مريم ضحية للفقر.. للحاجة.. للعوز.. للجهل.. تخلت عن أحلامها مقابل أطماع أو إطعام أهلها، وربما لتخفيف النفقات على أسرتها.

أحياناً، أعتبر أنها كانت بضاعة دفع ثمنها خالد، وبيعت له رغماً عنها، فلا ألومها إن غارت، فهي إنسانة مسلوبة الحقوق!

ولمثل أمي مريم عليّ أن أتمسك بأحلامي، وأصل إلى طموحي مهما كلفني الأمر..

فازداد جهدي، وقل نومي، وانعزلت عن الجميع، حتى صار من الصعب عليّ أن ألتزم بالجدول ذاته، حتى الحنونة لم تقدر عليه بطاقتها المحدودة، وجسدها المنهك.

ارتبكت جدتي مع ارتباكي، وصارت لا تقوى على السهر، خصوصاً أنني صرت أصلُ الليل بالنهار، عندما أجد صعوبة في فهم أحد الموضوعات، فلا أنام إلى أن تدغدغني أشعة الشمس، تناديني متعاطفة معي، تأذن لي بالذهاب لأخذ قسط من الراحة.

في واحدة من تلك الليالي العصيبة صَعُب عليّ فهم إحدى المعادلات الكيميائية، وقررت ألا أترك المعادلة إلا وقد فككتها، وتمكنت منها، خصوصاً أنني لم أكن فتاة اجتماعية، ولا أستطيع الاتصال بأي زميلة للمساعدة، كما كانت تفعل زميلاتي في الفصل.

في تلك الليلة كان القلق يؤرقني، ولم أكن قادرة على النوم وأكاد أجزم أنه إن تغلب النوم عليّ كنت سأحلم بالمعادلة نفسها!

لم أتوقف عن المذاكرة، حتى سمعت صوت المؤذن وهو ينادي لصلاة الفجر، فهممت بالوضوء.

لم يكن لي حمام خاص بي، فالحمام الذي كان في غرفتي أكله الصدأ، واهترأت فيه الأنابيب، فتم قطع الماء عنه، حتى لا تغرق غرفتي لعدم رغبة والدي في إصلاحه!

«لست متفرغاً.. مشغول».

كما كان يقول دائماً، على أنه لم يكن موظفاً في أي جهة، فعندما سجن تم تسريحه من العمل، كما أن قوانين الدولة تنص على أن من يفرج عنه يُحرم الوظيفة خمسة أعوام، فبماذا كان ينشغل؟

كانت عقارب الساعة تشير إلى الرابعة فجراً إلا دقائق.. تأخرت وأنا أنزع نفسي من مكتبي، وبقيت أفكر في تلك

المعادلة اللعينة، حتى في وضوئي، وعندما خرجت من الحمام لم أكن منتبهة على الطريق، كل ما كنت أفكر فيه هو ماذا سيحدث لو لم أتمكن من الإجابة عن السؤال؟

هل كنت سأطلب المساعدة من أحدهم؟ مثلاً أحد الجيران أو صديقات جدتي، أم كنت سأطلب مدرساً خاصّاً يعينني على الدرس، وإن كان موضوع الاستعانة بمدرس مرفوض في البيت؟

ربما سأتجاهل المعادلة وإجابتها، على أمل أنهم لن يسألوني عنها، ولكنني أعرف أسماء جيداً، لن أقبل ولن أرضى، بل لن أستطيع أن أجازف!

قطع تفكيري اصطدامي بجسد ما بغتة.. هلعت.. تراه ما يكون؟ ومن سيكون في هذا الوقت؟

أبي خالد يقف منتصباً أمامي كالعمود.

لم يمهلني لأعتذر له عن سهوي، وعدم انتباهي حتى هاجمني، وعوضاً عن أن يصفعني، يخنقني، يبصق علي كعادته.. تحسس جسدي!

صُعقت.. ذُهلت.. فَزعت!!

شعرت بيديه جيداً.. أحسست بأصابعه. رحل بهدوء كالأشباح.. تبوّلت على نفسي.

كابوس يا أسماء، وستستيقظين منه.

«ألم تستيقظ بعد؟»

عرفت صوت محقق المستشفى فور سماعه، ولكنني لست في مزاج يسمح لي بالكلام، فتظاهرت بالنوم، لا أريد أن أتكلم، كما لم أتكلم بعد تلك الحادثة، بعد أن لمسني خالد..

تلمس الممرضة عضدي لتلف جهازاً حوله تقيس به ضغطي، وكلما اشتد الرباط حول يدي، شعرت بالضغط، وتذكرت الاختناق الذي شعرت به في تلك الفترة..

تركت مسألة الكيمياء تلك، ولم أعرف كيف أحلها في الاختبار، بل حتى يومنا هذا، وبالكاد نجحت!

لم يسألني أحد عن سر هذا الهبوط المفاجئ والانتكاسة القوية؟ ولم ينتبه لنكوصي وتقهقري أحد كبقية الإشارات التي كنت أرسلها لهم، منذ أن كنت طفلة.. ما الجديد؟

أتذكر جيداً تلك الإشارات.. أولها الخوف الشديد، ولكن لأن الجميع كان يرهب خالداً، لم يلاحظوا خوفي منه وارتيابي، خصوصاً ذاك الخوف الذي دب فيّ عندما كنت في الخامسة من عمري، بعدما اصطحبني إلى البقالة وحدي، بعد أخذي من رياض الأطفال، وأجلسني على حجره، وهو يقود السيارة، بحجة أنه يعلمني القيادة، أذكر ذاك اليوم جيداً؛ لأنها كانت المرة الأولى التي يهددني فيها بالقتل إذا حدثتهم عما رأيت.

* * *

منذ ذاك اليوم الذي أتذكره وأنكره.

وضعت مسافة تفصل بيني وبين أي ذَكَر، وإن كان الذّكَرُ.. حيواناً! فلم أسمح لنفسي أن أكون موجودة بمفردي مع خالد، وإن تصادفنا أشيح ببصري عنه.

انتعشت ذكرياتي واسترجعت أحداثاً يشيب لها الولدان، كنت قد أقصيتها واستبعدتها من الوعي حتى أعيش!

عندما يحضر خالد شيئاً ما يوخز جسدي، فأشعر بالاضطراب، وفي كثير من الأحيان كنت أتوارى خلف جدتي الضئيلة بلا تفكير، فمعها فقط كنت أشعر بالأمان، ولخوفي على مشاعرها وردة فعلها، إن علمت بما وقع لي، فجدتي لم تعد شابة، كما أنها مريضة ومتعبة، أخفيت كل شيء لفترة من الزمن على الأقل، حتى أعلم أنا بنفسي ما عليّ فعله، وكيف عليّ أن أتصرف، وكم وددت لو أفصح عما يحدث.

كم وددت لو أصرخ ملء السماء عن تلك الليلة، بل تلك الليالي، ولكنني ألجمت لساني، وابتلعت كلماتي، فدفنتها في طيات روحي، واختنقت بها، كما فعلت من قبل، لأنه لا أحد يهتم.

أتذكر..

لم يهتم أحد بي عندما قطعت قيلولتي، وامتنعت عنها، خصوصاً وأنني كنت معتادة عليها منذ ولدت، ربما لأنه لا أحد منا يشعر بالأمن والاستقرار في المنزل، لم يستفسر مني

أحد لماذا صرت لا أنام إلا بوجود جدتي، وبالتحديد منذ أن صار خالد يتهرب من مريم ونعيقها، كما كان يقول، وينام في غرفتي وعلى فراشي.

مازلت أتذكر رائحة فمه الكريهة والجير المترسب على أسنانه النخرة القذرة، لعابه الحامض ورائحة السجائر، مازلت أذكر كيف تحداني حينها، بأنني لو تكلمت عما يفعله بي سيضع السم في كوب الشاي لتموت جدتي أمامي مسمومة.

لم يهتم أحد.. فلم يسألوني لماذا أصبحت أخاف النوم فجأة؟

والآن وأنا مراهقة في السادسة عشرة من عمري، سأصمت كما فعلت وأنا طفلة في السادسة، تعايشت مع الشعور بالغصة، حتى اعتدت عليه، وعلى الرغم من الاعتياد، جاهدت حتى أحفظ لساني بوجود مريم وحدنا، كم كنت سأرتاح لو صارحتها بذاك التحسس المقيت، وما سبقه بأعوام طويلة.

ربما كانت ستبرر لي ما فعل زوجها، وكنت سأرضى بالتبرير، حتى لو أنها شكّكت بوعيي واستيعابي، بل كنت سأسعد لو أنها ترى ما حدث لي، حلم تقمّصته في الواقع بسبب الضغط النفسي، وما أشعر به في فترة الاختبارات، ولكن خوفاً على مشاعري من ردة فعلها.. صرفت النظر!

هو والدي.. والآباء لا يؤذون أبناءهم.

لابد وأنني تخيّلتُ الاعتداء من شدة القلق والتعب من المذاكرة، وإن وقع فعلاً فربما هو لا يقصد شيئاً؛ فالظلام كان حالكاً، والشمس قد أشرقت، فتأثرت خطواته بالسهر.. كما أنني أبدو كمريم!

أنا الآن لست متأكدة مما حدث، فكتمت هذا السر في صدري، وقشعته من ذاكرتي، وكأنه لم يقع، كما فعلت سابقاً!

* * *

«هل حدث أي جديد؟».

سؤال الطبيب يوقظني من النوم، فأفتح عيناً واحدة مستطلعة، لأجده يسأل الممرضة التي تجيب بالنفي، جفوني ثقيلة، ما إن تنزل حتى تأبى أن ترتفع.

النوم يناديني، ومريم تهمهم للطبيب بشيء لا أفهمه، أركز قليلاً.. هي تسأله إن كنت سأصبح على ما يرام، فيرد عليها:

«المعدة والجهاز الهضمي بخير إلى حد ما، نسيطر على وظائفهما من خلال هذه المحاليل والأدوية.. أما حالتها النفسية فتحتاج حتماً إلى العلاج الجاد والفوري».

تتصرف مريم في المستشفى كما لو كانت تهتم وتلاحظ، هي لم تحفل بي مطلقاً من قبل ولم تنتبه، أتذكر هذا جيداً.

جدتي كانت تقول: لن يكبر طفل دون أن يؤذي نفسه، أما أنا فقد كنت ألحق بنفسي الأذى، ولا أحد يلاحظ! الطفل الطبيعي يؤذي نفسه غير متعمد، أثناء لعب أو عراك، أما أنا فكنت أمسك بالسكاكين والمسامير والمناشير، أُحدث جروحاً وتمزقاً هنا وهناك، دون أن ينتبه أحد!

ولأنه هددني بأنني لو تكلمت بأي شيء فسيقتل أمي ويعلق جثتها من شعرها، لم أشِ به أبداً، آملة أن يفطنوا لي وللتغيرات التي تحدث معي، كنت أقضم أظفاري حتى اللحم، حتى تلتهب أصابعي وتنزف صديداً موجعاً.

كنت أقص شعري بأسناني، وأبتلع الشعر أمامها، ولكنها ما فعلت أكثر من نهري عن هذه العادات القذرة كما كانت تسميها.

الآن، وأنا لا أحتاج اهتمامها أو ملاحظتها، بل حتى وجودها في الغرفة.. تقف أمي مقابل السرير.. تنظر مريم لي متأثرة، وعلى ملامحها كل التعابير التي تدل على الندم!

وما يفيد الندم إذا فات الأوان؟

أزفر في ضيق، وأدع النوم يأخذني إليه.

خذني إليك يا وسن، فأنت ألطف من خلق الله حولي.

* * *

«تعالي لي».

هكذا أمرني خالد في ظهيرة أحد الأيام من عام 2000، وهو يشير إلى غرفته، وقد كانت هي المرة الأولى التي يأمرني بها بهذه الطريقة، وبهذه النبرة!

كانت عيناه حمراوين مخيفتين، وعلى وجهه ابتسامة وقحة أشبه ما تكون بالمبغضة الحاقدة المتغطرسة الفظة.. جزعت!

أطلقت لساقَيّ الريح إلى غرفة جدتي؛ حيث تأخذ قيلولتها، وأقفلت الباب من خلفي، ثم دسست نفسي في أحضانها.. أرتعش برعب، مواقف كثيرة تتراقص في عينيّ لا أريد تكرارها، فتلك الطفلة كبرت، ولن ينقذها أحد، لذا عليها أن تنجد نفسها!

في الطريق بين قلبي ولساني اختلطت عليّ الأدعية حتى ضاع مني ما أريده وأطلبه من الله، أدعو بأن أكون قد أسأت فهمه، وبأنه لا ينوي شيئاً.. أدعو بألا يغضب مني، وألا يلحق بي.. أدعو ألا يفتضح أمري، أو تشعر جدتي بي.. الله فقط يعلم ما أريد!

تمر ساعة وأنا أهذي من الرعب ومن شدة الحر، فقد كانت جدتي لا تنام إلا بعد أن تطفئ جهاز التكييف رحمة بعظامها المتيبسة الخشنة.. أيعقل كل هذا الخوف من الرجل الذي عليه أن ينتزع خوفي، ويؤمن روعي؟

خرجت من غرفتها أسبح في عرقي، فلم يكن له أثر!

حسناً.. ربما أبالغ في خوفي!

* * *

«لا تخافي هذا إجراء قانوني، يجب أن يؤخذ لحمايتها»

يهدئ المحقق من روع والدتي وهو يصر على أن يعرف الحقيقة.. تلك الحقيقة المرة التي يصعب، حتى عليّ أنا، تصديقها!

من يقدر أن يتصور ما مر عليّ وأنا طفلة، من المفترض أن تكون أكبر همومي.. دمية وحلوى!

أتذكر في إحدى المرات أن أمي كانت مشغولة في غسيل السجادة، وجدتي تعد طعام الغداء، فاستغل خالد انهماكهما في العمل، وأخذني إلى الملحق، هناك تمزقت ثيابي، وهددني بأني لو تكلمت فسيحرق البيت بمن فيه وهن نائمات!

لم تحقق معي إحداهن في سبب تمزق الثياب، ولم يَعرضني أحد على طبيب ليعلم ما سر التبول اللاإرادي الذي أصبت به بعد تلك المرة، ذاك التبوّل الذي أبعده وشره عني.. من كان سيصدق؟

إثم خالد وإهمال مريم، وجهل الحنونة.

أيعقل أن كل تلك الإشارات لم تصل إليهن؟

ليتها وصلت.

أنام قبل أن يحققوا معي.

* * *

في إحدى المساءات الحارّة، كنت في الحوش أقرأ ديوان شعر كنت قد استعرته من مكتبة المدرسة، ذاك المكان الذي أضيع فيه لكي أجد نفسي.. بصوت عالٍ لأستمع للقصيدة بصوتي.

فقد أحببت الشعر حبّاً جمّاً، واستطعمت الروايات والقصص، وكأنها فاكهة شهية تؤكل كلها حتى بذرتها ويُبتلع لُبّها!

كانت الكتب هي عوالمي التي أعيش فيها، هي أصدقائي.. سلوتي في وحدتي ومتعتي، أقدسها وأكنّ لها احتراماً وتقديراً.

كانت لي طقوس بسيطة أمارسها عند القراءة، فغير الصوت العالي الذي كنت أقرأ به، كنت أتحرى الخلوة.

أختلي بنفسي أينما كنت، في الحوش.. في الملحق، وحتى فوق السطح لأستمتع بالشعر بصوت القلب ولسان العاطفة، وترجمان خلجات الوجدان.

مريم تكره القصائد، خصوصاً عندما ألقيها بصوتي كما أحب.

تناقض نفسها؛ فقد قالت لي مرة إن هذه الكلمات المصفوفة المسجوعة ليست إلا خزعبلات ذات تأثير سحري يُخضع من يستمع لها، وفي مرة أخرى قالت إن الشعر ليس إلا تعشيماً.. كلاماً بثمن، ويباع لمن يشاء، فأين السحر من العشم؟

ذابت روحي في تلك الظهيرة بين دفتي الكتاب، ولم أشعر بما يدور من حولي، حتى أحسست بثقل نظرات أحدهم.

هناك من يراقبني، وينظر إليّ.. صدَقَ إحساسي، لقد كان خالد يقف في الزاوية بعينين زائغتين وشعرٍ أشعث وهيئة مقززة، يقف هناك ويرمقني بنظرات زائغة لا تفصح عن وعيٍ يذكر!

لا أعلم كم من الوقت قضى واقفاً هناك؟ وكم سيقف؟ حافظت على رباطة جأشي، على الرغم من التوتر، وتماسكت وأنا أدّعي القراءة.. صوتي يرتجف وجسدي يرتعش، والعرق يتصبّب من بين ثنايا جسدي.

بدا لي أنه يقترب مني، كدت أتشنج، ولكنه بدأ بهرش جسده القذر، وكأنه مصاب بالجرب فابتعد عني! ربما لم يقترب أصلاً.. من يدري؟

أحارُ أحياناً في ردة فعلي.. هل أبالغ أم أتخيل أم تُراني أفرّغ عقد الطفولة، وأترجم خوفي منه وكراهيتي له دون أن أقصد؟

النفس تسول ما تشتهي والنفس تأمر بالسوء.. ما إن تأخذ

موقفاً ضد أحدهم حتى تكرس كل ذاكرتك لتحقنك بكل ما هو سيئ، وأنا لم أتخذ موقفاً، بل عشت معه مواقف...

هل تشربت مشاعر مريم طوال تلك السنين، فعاشت بي وعشت، فصرت أتخيل أموراً لم تقع، ولم تحدث؟

عليّ أن أتصافى وذاتي، فما أفكر فيه مستحيل!

* * *

«مستحيل!».

صرخت مريم، ففززت من نومي، أرفع لها حاجبي بانزعاج، فتشيح ببصرها عني، وتكمل الحديث مع الممرضة، عن احتمال تحويلي لمستشفى الأمراض النفسية حتى أستعيد اتزاني!

ما المستحيل الذي تستنكره مريم؟

إن كانت الفطرة قد تشوهت تحت ظلها، وفي كنفها، فماذا بقي لتتعجب منه، أو ترفضه؟! عن أي مستحيل تتحدث؟

على الرغم من احترازي وحذري الشديدين، إلا أنه وقع.. المستحيل حدث!

* * *

في الحقيقة لا أعلم ما أعاني منه، يبدو أن عقلي الباطن يستخدم استراتيجيات نفسية، وآليات دفاعية ليحميني من الجنون، أهمها الإنكار والقمع، فيدفن كل ما يضرني من

أحاسيس وأفكار وذكريات بعيداً عن الوعي.. يكبتُها عني، ولذلك لا أذكر تلك الفترة القذرة من حياتي.. لا أذكر إلا ما حدث قريباً.

التحسس الفظيع أيقظ تلك الذكريات فجأة، فحاول عقلي الباطن أن يتولى الموضوع كما يفعل دائماً ونجح، كما استخدم حيلة التبرير.. فاقتنعت!

ساءني جدّاً أن أفكر في والدي شرّاً، ولكنه لم يعطني فرصة لأحسن الظن به، ولم يمهلني حتى تنقشع الغمامة من أمام عيني لأرى العلاقات بمنظور منطقي وطبيعي، كما هي!

أتحاشاه فيدنو، أتجنّبه فيقترب.. بقيت أُعرض عنه بكل ما أوتيت من قوة، ولم ينفع انزوائي!

في ليلة من ليالي أغسطس من العام نفسه، طرقت جارتنا صفية الباب تطلب من جدتي أن تَحْضُر معها خِطبة ابنتها لتساعدها وتُعينها على التعرف إلى الخطيب الجديد وأسرته، وأن تعلمها ما الذي عليها أن تسأله أو حتى تشترطه عليهم.

فهي أرملة وحيدة تقاطعها أسرتها؛ لأنها استقرت بعد وفاة زوجها في منزل آخر دون أب أو أخ يسيطر عليها ويراقبها.

أستغرب من هؤلاء البشر، يقذفون ابنتهم ويقاطعونها، وكأنها ليست من دمهم ولا من لحمهم.. وكأنها ليست أنثى ضعيفة تحتاج إليهم الآن أكثر من أي وقت آخر، يتركونها

لقمة سائغة للذئاب، وعرضة لكل مُشين مُهين؛ لأنهم يصفون رغبتها في احتواء الأيتام احتواءً طيباً بعيداً عن الضيق والمضايقة، بالانحراف.

كل ما هنالك أنها لا تقبل لهم الحبس في غرفة واحدة، ولا ترضى أن يتحول الجميع إلى آباء لصغارها.. هذا يربي، وذاك يفتي، وتلك تسقط عُقَدها النفسية عليهم.. كرامتهم هي جلّ ما تريد أن تحفظه!

ولسوء حظها تُقاطعها كذلك أسرة زوجها المرحوم؛ لأنها اعترضت على الزواج بأخيه بعد موته؛ ليحافظوا على أبنائه، كما يزعمون في كنف عمهم، وأمام أعينهم في منزل العائلة، وليجنبوهم زوج أم غريباً يحلّ لأمهم ويحرم عليهم.

رفضوها لأنها رفضت أخاه، حَمُوها.. ذاك الرجل الذي لم تتخيل صفية نفسها يوماً ما زوجة له، ولم تقبل أن تشاركه زوجته وأبناءه.. لم تقبل على نفسها أن تتطفل عليهم فقاطعوها!

بكت صفية في أحضان جدتي حظها العاثر، وإجحاف أقرب الناس لها، ففزعت لها، وسبقتها إلى منزلها، على كتفها عباءة، وفي يدها مصحف، تاركة المنزل لي ولمريم.

انزوت مريم كعادتها في غرفتها تعيش أحلام اليقظة التي كانت سبيلها لمقاومة مشاعر الخيبة، الانهزام والاضطراب،

بل سبيلها للبقاء.. هلوسات أفكارها ترفض واقعها حتى بعد مرور السنين.

اتخذتُ أنا زاوية في الحوش تحت نور مصباح يتيم لأطل على العالم من خلال كتابي، فالكتاب موطني الذي أعيش بين سطوره، بعدما فقدت انتمائي للبيت الذي أسكن فيه.

غرقت في خيال الكاتب حتى صرت أقرأ، وكأنني أرى ما كتبه على الورق، وعشت الأحداث، وكأنني بطلتها، ومع تصاعد الأمر وجدت من يُكمّمُ فمي.

ضعت ما بين الخيال والواقع.. بين أحداث الرواية، وبين ما يحدث لي.

أبي يكمم فمي، ويطرحني أرضاً؟!

خالد جثم فوقي!

كدت أفقد وعيي، ولكن شيئاً ما أمدني بقوة عظيمة فاقت ضآلتي.

أزحته من فوقي بدفعة واحدة، ركضت بلا وعي أرتطم بالجدران، أتعثر في الحجارة كالبرق، فتحت باب الحوش، وركضت في الشارع حافية القدمين.. مزق زجاج قنينة مكسورة لحمي، ولم أشعر بشيء حتى وجدت نفسي أطير في الهواء، ثم صفير ممتد عقب هبوط موجع على الإسفلت!

صدمني ليلتها مراهق مستهتر لا يملك رخصة قيادة، توسّل والده في بجاحة وإلحاح شديد لأبي أن يتنازل عن القضية مقابل مبلغ مُجزٍ.

سال لعاب خالد، واستغل الموقف وابتزه، دون أن يأبه بدمائي التي سالت على الإسفلت، وروحي التي كادت تفيض إلى المولى، واتفق معه على أن يدعي أنه هو من كان يقود سيارته لا ابنه؛ لينجد ولده من العقوبة، وبالفعل نجا!

أما أنا فلم يسألني أحد ماذا كنتِ تفعلين يا أسماء في الشارع في تلك الليلة؟

* * *

مريم تُجري اتصالاً دوليّاً يسحبني من حيث كنت بعنف إلى غرفتي بالمستشفى.

فتحتُ عيني على ظهرها؛ حيث كانت تستقبل النافذة، وهي تنتحب وتدعو بحرقة على والدها بلهجتها التي لم تتغير رغم الزمن:

«الله لا يوفقك أبي.. الله لا يوفقك».

أخيراً، وبعد ثمانية عشر عاماً من المرارة تكلّمت، لامته وعاتبته، استفرغت ما في جوفها من كراهية في أذنيه.

سكتت مريم دهراً، ونطقت كفراً.

لم ترحم ضعفه، ولم يشفع له فقره، ولم ترقّ لكبر سنه،

وألقت عليه وابلاً من اللعنات، وعظيم المسبات، ومن بين كل ما قالته سمعتها تبكي قائلة:

«بسببك خسرت نفسي، خسرت روحي، خسرت شبابي وسنوات عمري، حتى الجنسية التي كنت تطمع بها لتستفيد من امتيازاتها عن طريقي لم يطلبها لي، والآن خسرت ابنتي.. خسرت حياتي بسببك».

ترى لماذا لم يسع أن تحصل مريم على الجنسية الكويتية؟

أفكر، ماذا كان بإمكانها أن تفعل لو أصبحت أمي مواطنة، وتمسكت بحقوقها ضد زوجها الذي كان يشعر بالسيطرة والقوة لحرمانها منها.

لا أعلم متى نمت؟

* * *

خرجت من المستشفى بعد حادثة الدهس مكسورة الفخذ والخاطر!

خالد تصرف وكأن شيئاً لم يحدث، سافر بمبلغ التعويض قبل خروجي من المستشفى، أما جدتي الحبيبة فكانت تلوم أمي التي لم تنتبه لي ليلتها؛ لانشغالها في منزل صفية، ومريم كانت تندب حظها على أنانية جدتي؛ لأنها اعتمدت مبدأ: «زوّجوه ليعقل»، لإصلاح منحرف لم ينصلح حاله، بل دمر حياة مراهقة تزوجها، وحوّل حياة أسرته إلى جحيم، ندبت

حظها لأن والدها باعها لرجل لا يعرف عنه شيئاً للتخلص منها بداعي الفقر.. رجل غريب لا يعرف حتى أين تقع بلاده على الخريطة!

تندب حظها على زواجها بذكر شاذ يفتقد أبسط معاني الإنسانية، سافر وحده، وتركها بلا مصروف، خصوصاً وأن البنت بنتها أيضاً، ولها حق في التعويض كما له!

لست في حياة مريم، ولست في حسبة خالد.. هم لا يعتبرونني شيئاً! ولم أنم بعد تلك الحادثة.

كنت أبكي عظامي المكسورة طوال الليل.. عجباً للآلام لم أفهم كيف لها أن تشتد في العتمة؟ ولماذا يكبر الوجع في الظلمة؟ وما للسقم أن يتضخم في سكون الدجى؟

وعندما يبدأ مفعول المسكنات وتهدأ عظامي.

تتصدع روحي العليلة!

ما فعله والدي بي لا يحتمل التشكيك أو التأويل، ولغرابة النفس البشرية بقي هناك جزء أحمق مني مستمر بوضع الأعذار له.. جزء غبي مرتبط فطريّاً بخالد، لكوني ابنته أحمل في عروقي دمه، وأحمل معي اسمه!

كطفولتي آثرت الصمت، فالموقف أكبر من أن يُقال، وأصعب من أن يُشرح، ويستحيل فهمه..

كما كانت تقول جدتي للسّتر على أي فضيحة:

«دعها في القلب تجرح أفضل من أن تخرج للناس وتفضح».

تفاقم خوفي منه وتضاعف، وما لطف بي إلا سفره بعد الحادث للمقامرة بمبلغ التعويض على طاولات القمار، وممارسة الموبقات والمحرمات، على الرغم من الشيب في رأسه وسنين عمره التي جاوزت الخمسين.

تقوقعت من جديد على نفسي، وانعزلت عمن حولي.

لم أعد أفكر في أحلامي التي رسمتها، ولا أرى لي مستقبلاً كنت قد خططت له، اضمحلت أهدافي، بل إني أصبحت أرى الألوان مختلفة، وفقد كل شيء في عيني بريقه!

اعتقدتْ جدتي أن الخوف تمكّن مني، في حين اعتقدت مريم أنني صرت أشاركها المشاعر نفسها، وأخيراً.. كشفت خالداً، دخلتُ عالمها وفهمته بسبب حادثة الدهس، الانفراد بالتعويض والهروب به!

ولم يُدهَس إلا كياني.. ويُبَعثر.

* * *

لم يمهلني القدر وقتاً كافياً لألحق الفاجعة بتلك الأخيرة التي سبقتها بأكثر من عشر سنوات..

كيف تقول جدتي الحبيبة لي إن الزمن يداوي كل داء، وإن

الوقـت كفيـل بالتئـام الجـروح، وكشـف الأقنعـة، والباطـل وإن طـال عليـه الأمـد فإنـه سـينتهي؟

لم ينتهِ!

وخسـر خالـد ثمـن حياتـي التـي كـدت أفقدهـا علـى طاولـة قمـار، وبأعجوبـة نجـا بحياتـه، خلّـص نفسـه مـن عـراك دمـوي، وعـاد إلينـا.. عـاد خالـد سـريعاً فـي وقـت لـم أقـوَ فيـه علـى المواجهـة، وليتـه قُتـل فـي ذاك الشـجار، ولـم يعـد!

* * *

«عدت مجدداً».

أفـزّ عنـد سـماع صـوت المحقـق الـذي يسـعد بصحوتـي، ويقتـرب منـي علـى الرغـم مـن اضطـراب مريـم وتوترهـا.

أعتدل في جلستي، يبتسم هو، وتشحب هي!

«أخيراً..».

أشـيح ببصـري، وأنظـر إلـى النافـذة.. الشـمس تسـطع بوقاحـة أسـتنكرها، فعلـى كل شـيء أن يظلـم كمـا تظلـم ذاتـي وتسـودّ.

لا أعلـم كـم مضـى عليّ فـي المستشـفى، ولا أدري مـا حـدث بعـد أن حاولـت الانتحـار، لا أتصـور مـا سـيحدث لـي أو لهـم.. أنـوي أن أفضـح الأمـر، وأتكلـم.

يتنحنح لأنتبه له.

بصوت متحشرج يكاد لا يُسمع سألته:

«هل ستصدقني؟».

«سأحميك بكل صلاحياتي..».

سيحميني!

أنظر إلى مريم، وأشير إلى المحقق، وأقول لها:

«سيحميني.. سيحميني يا أمي.. سيقوم بواجبك عنك.. يحميني عوضاً عنك!».

أسحب اللحاف على رأسي، وأنتحب من كل قلبي

رقّ قلبه لي، وتركني تحت اللحاف.

خرج هارباً من أنيني.

* * *

كلما اشتد أنيني، تحسّست جبيرة فخذي المكسورة.

يقول الطبيب إنه زرع بها لوحاً معدنيّاً، وعدة مسامير قد تؤثر في مشيتي لاحقاً، ربما سأعرج، وربما لن أرتدي حذاءً ذا كعب عالٍ كأي فتاة، وقد تتحول فترة الحمل إلى عذاب لا يطاق.

تكهّنات كثيرة، واحتمالات عدة لم آخذ بها، فأنا محطمة وخائفة!

عودة خالد إلى المنزل، وأنا بهذه الحالة المزرية فتكت بي.. ذُعرت.. ماذا لو نال مني، وفقدت أعز ما أملك؟

قـررت أن أشـارك مريـم السـر، لعلهـا تتصـرف، تنقذنـي وتحميني، ولكنني لـم أعـرف إن كنـت سـأخبرها بـكل مـا حـدث أم بآخـر مـا حـدث!

اختـرت سـاعة قيلولـة جدتـي، حتـى أداري عنهـا مـا يضرّهـا، ولا يسـرّها سـماعه، وسـحبت نفسـي بصعوبـة إلـى حيـث تجلـس فـي الصالـة، واقتربـت منهـا.

«أمي.. أحتاج أن أتكلم معكِ».

تُقَلّب القنوات ببرود، وترد عليّ دون أن تنظر إليّ.

«تكلمي».

أستصعب الحديـث فـي الصالـة، مـاذا لـو سَـمِعَتْ جدتـي مـا نقـول؟ ومـاذا سـيفعل بـي خالـد لـو دخـل، ووجدنـي أشـي بـه؟ سـينفذ تهديداتـه بـلا شـك، وسـيقتلنا جميعـاً، أبتلـع ريقـي، وأصـرّ عليهـا:

«ماما الموضوع..».

لا أعـرف كيـف أبـدأ الـكلام. أشـعر برجفـة تمسـك بـي. تتـرك «الريمـوت كونتـرول»، وترفـع حاجبهـا، ثـم تنظـر لـي.

«تكلمي!».. تخاطبني

أتلفت في خوف شديد، وأبتلع ريقي:

«علينا أن نذهب إلى مكان آخر».

أهمس لها، والعرق يتلألأ على جبيني.

«الأمر محرج جدّاً، ولا أريد لأحد غيركِ أن يعلم به».

تطيل النظر إليّ بنظرات متوجسة، حتى شعرت بقلقها، فتقوم من مكانها، وتأمرني باللحاق بها.

رفعت أطراف ثيابها بيديها الاثنتين كما تفعل في كل مرة تتوتر فيها، ومشت أمامي مسرعة دون أن تراعي إصابتي.. أنظر إلى قوامها من الخلف بإعجاب، لن يصدق أحد أنها أمي!

تبدو كالمراهقات الظريفات، وكأنها أختي التي تكبرني بأعوام قليلة.. كم أشفق عليها.. وكأنّ ما مرّت به لم يكْفِ حتى أقلب أنا كل شيء رأساً على عقب، أم تُراني أعدله؟!

اختارت مريم الظل تحت شجرة السدر الكبيرة مقابل باب الملحق، وتخصّرت واقفة تنتظر أن أصل إليها، ووصلتُ لاهثة، ولكنني تجاوزتها ودخلت إلى الملحق ليكبر خوفها.

هذه المرة هي التي تلحق بي، وتغلق الباب من خلفها.

ترتعش وتترقب!

«خالد».

تجحظ عيناها، وتحدّق بي، وكأنها تتوقع ما ستسمع.

«يتحرش بي».

تشهق أمي، ولا تزال عيناها متجمدتين ثابتتين عليّ.

«خالد!»

فـي غمضـة عيـن انفجـرت العبـرة التـي كانـت تخنقنـي، وانهمـرت فـي البـكاء حتـى فقـدت السـيطرة علـى عضلاتـي!

لا أقـوى علـى ابتـلاع ريقـي، فسـال لعابـي حتـى اسـتقر علـى صـدري، واختلطـت دموعـي بمخـاط أنفـي، حتـى إننـي تبولـت علـى نفسـي، اقتربـت منـي بعينيـن زجاجيتيـن، أمسـكتني مـن كتفـي، هزتنـي بشـدة!

عجز لسانها عن سؤالي، ولكنني علمت بدقةٍ ما تريد معرفته.

هـززت لهـا رأسـي بالنفـي، فتنفسـت الصعـداء، واحتضنتنـي بقـوة.

لأول مـرة أشـعر بهـا، لأول مـرة أتمنـى أن يتوقـف الزمـان، ووددْت لـو طـال الاحتضـان لدقائـق أخـرى لأشـكو لهـا جفـاء السـنين، وحاجتـي لـدفء أحضانهـا.. يـا اللـه مـا أجمـل رائحـة نحرهـا!

لكنهـا لـم تطـل، وعندمـا همّـت والدتـي بالخـروج مـن الملحـق، وإخبـار جدتـي بمـا قلتـه لهـا، أوقعـت نفسـي علـى قدميهـا لأمنعهـا، فنظـرت لـي متعجبـة.

«أرجوكِ أمي.. ارحميها!».

نظـرت إليّ طويـلاً، ثـم سـحبت أقدامهـا مـن تحتـي، وخرجت فصرخـت مـن مكاني:

«الحنونة ستموت!».

تجاهلتني، تركتني أُلَمْلِمُ شتات نفسي.. أسألُ نفسي كيف لها أن تصدقني بسرعة، ولماذا لم تُعَلّق على ما قُلته لها؟ وهل ستخبر جدتي الحقيقة كما حدثت.. يا ترى كيف ستتصرف؟

لا تهمني الإجابات الآن، فما يهمني أنني أزحت عني حملاً أثقل كاهلي..

راحة!

* * *

«لترتاح!».

الطبيب يأمر المحقق بأن يتركني وشأني على الأقل حتى أتجاوز المِحْنَة التي أمرّ بها، فلا زلت حسب كلامه مضطربة، وردود أفعالي غير متوقعة.

لا يهمني ما يقوله.. يهمني أن أرتاح؛ فقد تعبت جدّاً من الهروب منه، تعبت من مقاومتي بجسدي الصغير، تعبت من كتم هذا السر خوفاً على حياتنا جميعاً، تعبت من الخوف، فكلما كان يعتدي علينا بالضرب، كنت أتخيل ماذا كان سيفعل بي؟

* * *

تغيرت نظرات مريم لي بعد أن صارحتها!

لـم أتمكـن مـن تفسـير هـذه النظـرات وفهمهـا.. حانقـة، مشـفقة، حاقـدة، حنونـة، حاسـدة، مواسـية؟

كمـا أننـي لا أعلـم لمـاذا كانـت تتربـص بـي؟ ومـا إذا كان وجودهـا بقربـي أمانـاً؟ هـل كنـتُ جانيـةً فـي نظرهـا أم مجنيّـاً عليهـا؟

بعـد المصارحـة بعـدة أيـام توقعـت أنهـا قضتهـا فـي التفكير في كيفيـة التصـرف، إن كانـت ستلجأ للقانـون علـى سـبيل المثـال، أم سـتجد طريقـة تعالـج بهـا الأمـر، وتحميني منـه؟ ولكنهـا اكتفـت بقولهـا لـي:

«احمي نفسك».

نظـرتُ إليهـا فـي خـوف، فكّـرت لمـاذا عليّ أن أحمي نفسـي؟ وليـس عليـه أن يتوقـف عمـا ينـوي فعلـه؟ لمـاذا علـى النسـاء التصـرف، وتعلـم الدفـاع عـن النفـس، وليـس علـى الرجـال غـضّ البصـر، والتحكـم فـي النفـس؟

وقبل أن أسألها أردفت:

«خالـد حيـوان قـذر يسـتحل محارمـه.. لـن أقـدر علـى حمايتـكِ منـه».

قامـت مـن مكانهـا، وأنـا أكاد أختنـق بصمـت.. هـل حقّـاً

تخلّت عني؟ دمعةٌ هربت من عيني، وسالت رغماً عني، قبل أن تخرج من الغرفة التفتت إليّ وقالت:

«لا تجلسي بمفردك، لا تختلي به».

هل تلومني أمي على ما وقع لي، وأنا الضحية التي تنشد العدالة؟

تأمرني بإصبعها الذي تلوح بها في الهواء، وأنا لا أزال مخنوقة، تتملّكني الرغبة في الاستفراغ:

«دافعي عن شرفك بكل ما تملكين من قوة.. اهربي».

كلمتها الأخيرة كانت كفيلة بإلجامي!

اهربي؟

حسنا، لكن ممن أهرب؟ وإلى أين أذهب؟ الهرب ليس حلاً، ولن أستطيع أن أسيطر على المشكلة وأطرافها بالهروب منها.. أنا أخاف الفرار، هل حقّاً عليّ أن أفرّ من أهم نِعَمِ الله؟

العائلة التي هي ليست أهم شيء، بل هي كل شيء، كيف أُدْبِرُ عنها؟ لا أقدر على الابتعاد عنها، ولا حتى على التفكير في ذلك.. مستحيل.

حقّاً كيف تنصحني أمي بالضياع، بالتشرد والضلال، وإن كانت عائلتي ليست عائلة طبيعية، فليس كل من حمل دمك واسمك، حتى لو شاركك منزلك ولقمتك.. يسمى بالضرورة عائلتك!

نصيحتها قذفت في رأسي سؤالاً عجزت عن الرد عليه:

«ما العائلة؟».

لحقت بها وأنا أغُصّ ببكائي، فتحت باب غرفتها دون استئذان، كانت تجلس على سريرها، وكأنها تنتظرني، فسألتها بهمس متقطع:

«ماما ألن تحميني منه؟».

لم تفكر في الإجابة، ورمتها عليّ بلا رحمة:

«لكنتُ حميت نفسي منه!».

ابتلعتْ ريقَها، ثم تلت عليّ عدة تعليمات تتعلق بثيابي، عطري، شكلي، حتى ضحكتي، وطريقة كلامي.. أما أنا فبقيت أُفَكّر كيف خذلتني، وتخلت عني في موقف كهذا؟!

لم تتحمّل المسؤولية، ولم تتصرف حتى وفقاً للغريزة! يا ترى كيف كانت ستتصرف الأمهات في هذه الحالة؟ هل كان عليّ أن أُخبر جدتي دون أن أخاف عليها؟ لا أدري.. أعتقد أنني أخطأت بإعلام أمي!

وتفاقم خوفي مع نَدْبِ حظي!

كيف ألقي بنفسي إلى التهلكة بهروبي منه؟

كيف أحمي أسماء؟

* * *

«نحن نتكفل بحمايتها.. دعيها فقط تتكلم، وتخبرنا بما حدث!».

أفتح عينيّ، وأنظر إلى المحقق الذي لا يتوانى عن اقتحام غرفتي، وكأنه لا أحد في المستشفى غيري أنا، ضارباً بتوجيهات الطبيب عرض الحائط.

وكأنني أناديه:

«سأتكلم!».

تشهق مريم، وينظر إليّ المحقق مبتسماً:

«إن كنت ستحاسب المتسبب.. عليك أن تحاسب الجميع.. أوّلهم هذه التي تقف أمامك».

تطرق مريم رأسها إلى الأرض، فأُكمل في حرقة:

«حاسب أسرتي، هم شركاء في الجريمة، أمي بإهمالها وتجاهلها.. لو كانت قد فتحت لي الطريق، لو أنها سمحت لي بالكلام، لكنت أوقفت كل هذا من بدايته، وعندما علمتْ.. خذلتني!».

تقاطعني مريم في مرارة:

«لا تكوني ظالمة».

أبتسم في سخرية، وينظر إليها المحقق، فتكمل وهي تقاوم دموعها:

«لقد احتملت ما هو فوق طاقتي يا أسماء، أنا التي تعذبت وعانيت الأمَرّين من أمراضه الجنسية، وتجشمت عقده النفسية، قاسيت ممارساته المجنونة ما يقارب عشرين عاماً..».

تضرب صدغها عدة ضربات سريعة ومتتالية.

«ممارسات لا يتخيلها عاقل يا ابنتي، منذ أن كنت مراهقة أصغر منك سنّاً.. وشهدت على خياناته بكل أنواعها، بل كنتُ أنظّف آثارها النجسة على سريري، وحتى على ثيابي بيدي! عن أي حساب تتكلمين؟».

تدخُل مريم في نوبة نشيج، بالكاد تتنفس، ينادي المحقق ممرضات الجناح، أما أنا فأعطي الجلبة ظهري وأنام.. اكتفيت وشبعت من الأعذار والاعتذار.

اكتفيت من كل شيء.

* * *

جدتي تشكو من انقطاع راتبها التقاعدي.

لأول مرة أسمع الحنونة مستاءة ومعترضة، وأنا التي اعتدت عليها راضية وقانعة، مهما كانت ظروفها، أسمعها تقول لمريم إن خالداً أثقل كاهلها بطلباته التي لا تنتهي.. المال فقط، والكثير من المال!

تردّ مريم بأن زوجها يعاملهم معاملة المصرف دون

السؤال عن مصدر المال، ولا يكتفي منه؛ لأنه ينفقه في الحرام بسخاء، وتكاد تجزم بأنه لو احتاج للمال، ولم يجده سيبيعها لمن يدفع له، وربما يتاجر بابنته!

تمتعض جدتي وتنزعج، لا يعجبها ما تسمع، ولكنها تصمت مرغمة.. هي كبقية الأمهات تحب أطفالها على الرغم من عيوبهم، وتقبلُهم كما هم، قد تضربهم، بل تنهال عليهم بالضرب المبرح وتكسر عظامهم، ولكنها لن تقبل أن يؤذيهم غريب أو يجرحهم بكلمة!

الأمهات جنة الله في الأرض.. هن اللاتي بإمكانهن أن يحللن محل الجميع، ولا أحد يقدر على أن يسد مكانهن.

تصمت جدتي لأنها عادلة، وتخاف من يوم الحساب، وقد تقف في صف المظلوم، وإن كان الظالم فلذة كبدها.

لطالما كانت الحنونة أذناً صاغية، وحضناً دافئاً، وقلباً يحب بلا مقابل.. قلبها من ذهب، هي تعلم ما تمر به مريم من عذاب، وتدري بأن خالداً يحتاج المال لشراء المُسْكِرات والمخدرات.

كم تلوم نفسها، وتجلد ذاتها بقسوة، فهي تعتقد أن انحراف ابنها كان بسببها!

بقيت جدتي حائرة في تحديد موضع الخلل، ولم تنفكّ تسأل نفسها فيمَ أخطأت حتى يشذ خالد ويفسد؟

لقد تعبت هي وجدي على تربيته تربية صالحة، وغرست به الوازع الديني كما يجب، كذلك حرصت على صلواته أكثر منه، واهتمت بأخلاقه أشد اهتمام.. هي بنفسها كانت تُحَفّظُه القرآن الكريم مما تحفظ، ولم تتركه حتى عندما توفي والده، وبقيَت بقربه توجهه وترشده وتنصحه.. لم تبخل عليه لا بوقتها ولا بجهدها ولا بحرصها!

لم تَلُمْ نَفْسَهُ الأَمّارَةَ بالسوء، فهي تستبعد كل البعد أن تكون ذاته سيئةً، تظن أنه نطفة طاهرة من ظهرٍ طاهر.. ابن رجل متدين يشهد القاصي والداني له بمكارم الأخلاق في حياته، وحتى بعد مماته، وألقت اللوم على رفقاء السوء بدءاً بالذين علّموه مشاهدة الأفلام الإباحية، وانتهاء بمن قاده إلى تجربة لحظات اللذة المحرمة مدفوعة الثمن لبائعي وبائعات الجسد!

في وسط المعمعة أقضم خبزتي اللبنانية التي ألفها بيدي، وأنا أجلس على الكنبة أمد قدمي المكسورة أمامي وأنظر إليهما.. التوتر يخيّم على المكان، أنظر إليهما في صمت، كانتا تدعيان الانشغال.. مريم تمسح الغبار من على الطاولات، والحنونة تنظف الأرز قبل طهيه حتى لا تتشاجرا معاً.

مريم بعد أن علمت بما حدث لي، صارت تنتقد خالداً بشراسة، بمنتهى الوقاحة، وتغتابه أمام جدتي دون أن تراعيها،

أو تحترم وجودها.. أحياناً تتمادى فتجرح الحنونة بِتَعَدّيها على تربيتها له، ولعن دمه وأصله وعائلته!

أترك عالمهم المشحون بالغضب، وأدخل إلى أحلام يقظتي التي أدمَنْتُها وأتخيل نفسي طبيبة بالرداء الأبيض، هذه السنة سأكون طالبة في الصف الثالث الثانوي، وهي أولى سنوات التخصص العلمي؛ أي الخطوة الأولى في الطريق إلى تحقيق حلمي.

أيام معدودة تفصل بيني وبين المدرسة، ترى كيف سأذهب إليها، بجبيرة على فخذي المكسورة؟ وكيف سأجلس لساعات طويلة مع مسطرة المعدن؟

المعضلة الكبرى، ماذا سيحدث للمسامير في صعودي ونزولي من الباص مع العكازين.. إذا استطعت ذلك؟

نقلتُ مخاوفي إليهما، فتصرفت جدتي.

بعد أسبوعين، أقلني ماجد إلى المدرسة بسيارته مع أخواته، أم ماجد صديقة جدتي وجارتها، لم ترفض طلب الحنونة، بل على العكس تماماً رحبت بي مع ابنتيها: ريم التي كانت تكبرني بعام، ومها التي تصغرني بعامين.

ريم تكفّلت بحمل حقيبتي إلى الصف، ومن الصف يوميّاً، كما أنها تحرص على أن أصل بسلام إلى مقعدي، ومنه إلى السيارة، أما مها فحملت على عاتقها التأكد من

أموري في الفسح، فكانت توفر لي الماء إن لم أحضر معي قنينتي، وكانت تصف بطابور المقصف المدرسي تشتري لي طعامي إذا نسيت وجبتي في المنزل.. تلك العائلة عاملتني بلطف شديد، خصوصاً ماجد.

طالب جامعي طموح يدرس في كلية الآداب، يقول إنه اختار تخصصه لحبه الشديد للأدب، وولعه بالكتب والمؤلفات، فكانت هذه أول خصلة مشتركة بيننا، والتي فتحت لنا المجال للحديث والمناقشة بلا ملل ولا كلل.

على الرغم من التعب والإرهاق، وألم الكرسي الذي أجلس عليه من الساعة السابعة والنصف وحتى الساعة الواحدة والنصف، إلا أنني لم أتغيب عن المدرسة يوماً واحداً، بل تمنّيت لو أنني أذهب إليها حتى في أيام العطل، المشوار إليها ممتع جدّاً.. أخيراً أشعر بالألفة وبأن أحداً ما يفهمني، كنا نتحدث لغة واحدة.

صرنا نتنافس في حفظ القصائد، نقد القصص، تلخيص الكتب، مناقشة المقالات وتوجهات المؤلفين، وسط ضجر ريم ومها، وحتى أستطيع مجاراته صرت أقضي اليوم كله بين الأوراق والمراجع والدواوين.

لم أشعر بالوقت أبداً، كنت أفرغ من المذاكرة وأداء الواجبات بسرعة خيالية، حتى إنني كنت أنتهي منها على سفرة الطعام لتبقى لي ساعات أُحضّر فيها للقاء ماجد،

حرصت على أن أكون مميزة في البداية حتى لا يغلبني، ثم حتى أثير إعجابه!

رويداً رويداً بدأ يزحف إلى قلبي شعور غريب، لأول مرة أشعر به، يكبر يوماً بعد يوم بأحاديثنا وضحكاتنا.

بدأ هذا الشعور بالتأثير في مزاجي وأفكاري وحتى في جسدي، فقد كنت أضطرب عندما تتلاقى عيناي بعينيه، فيدُقُّ قلبي بسرعة، يجفُّ ريقي، ويكسوني العرق، وعلى الرغم من ذلك كنت أستمتع بالنظر إليه، حتى حفظت تفاصيله عن ظهر قلب.

تبدل حالي..! فتحججت لجدتي بصعوبة المناهج، في حين لم تأبهْ أمي لهدوئي العجيب، إلا أنني وجدت نفسي أسألُها بلا تفكير، وهي تفرم حزمة من البقدونس عن الحُبِّ، فأجابتني مبتسمة دون أن تنظر إليّ:

«الحب هو أن تكتفي به، ولا تكتفي منه».

أعتقد أنّ تعبير مريم كان أبلغ وأدق تعبير، كم أحببت ما قالت وطمعت في المزيد، أعددت فنجاناً من القهوة، وشغّلت أغنية من أغاني أسمهان، أحضرتُ دفتراً وقلماً لأدون ما تقول، واقتربت منها أسألها عن الوجد:

«إكسير يُفقدك وعيَ الحياة».

وكأن مريم كانت تنتظر دهراً سؤالاً كهذا، لتنطلق بلا توقف تشرح لي حقيقة الحب بمنطق صديقة مقربة:

«هـو الشـعور بـروح أخـرى تسـكن روحـك، هـي لـك كلُّ شـيءٍ، والحـب يـا أسـماء هـو الجسـر بينـك وبيـن كل شـيء».

فكتبـتُ فـي دفتـري الخـاص الـذي كنـت أجمـعُ فيـه أجمـلَ مـا أقـرأ، وأُلصِـقُ بـه بعـض الصـور الرومانسـية التـي أقصُّهـا مـن الصحـف والمجـلاّت:

«أن أحبـك هـو أن تنبـت أنـت فـي قلبـي وردة، وتنمـو فـي صـدري أنـت بسـاتين».

قـرأت عليهـا مـا كتبـت فأعجبهـا، وبقينـا نتحـدث فـي المطبخ، ولـم نشـعر بالوقـت حتـى دخلـت جدتـي، فابتلعـت مريـم لسـانها، وأخفيـت أنـا الدفتـر، ثـم شـاركنا العندليـب الأسـمر، وغنـى لنـا «أول مـرة تحـب يـا قلبـي»، فصمـت الجميـع، وأنصـت لعبدالحليـم حافـظ العاشـق.

صـار للسـهر معنـى آخـر، سـكون الليـل غـدا جميـلاً، لـولا طرقـات متسـلل علـى بـاب غرفتـي يهمـس باسـمي، يسـتغرب مفتاحـه الـذي لـم يفتـح القفـل الجديـد، ولكننـي لا أهتـم بذلـك، فهنـاك مَـن أهـواه.

يبدو أن كثير المجد اختطف قلب الأسمى!

* * *

رجـال كثـر يتكلمـون عنـد البـاب، تُحـدث جلَبَتُهـم ضوضـاء تزعجنـي.. أُفيـق!

لا أحد في الغرفة لا الطبيب ولا الممرضة، أو حتى مريم.

ترى أين ذهبت؟

هل انتهى مخزون الحنان عندها؟ أم اكتفت من تقديم حبها لي كما يناسبها؟ ربما تعبت من التمثيل، وعادت حليمة إلى عادتها القديمة.

الباب مفتوح.

أولئك الرجال في الخارج يرتدون ملابس شرطة، من بين أصواتهم أتعرف إلى صوت المحقق الذي سيحميني من الجميع، وأنوي أن أفصح له عن كل شيء، ماذا يفعل وسطهم؟

أنظر إلى الباب، أنتظر أن يدخل عليّ أحدهم.

هل ذهبت مريم إلى الحمام؟

تَخْطُرُ على بالي فجأة عيون خالد، وهي تنظر إليّ بشهوة من خرم الباب، وأنا في الحمام منذ أن كنت طفلة.. في البداية اعتقدت أنه يلعب معي، فكنت أنتظره لألعب معه، وأضحك في براءة الأطفال، دون أن أعلم بأنه يهتك عرض طفولتي!

أين كانت أمي عندما كان يختلس هو النظرات؟

طال انتظاري ولم تدخل مريم الغرفة بعد.

نمت وأنا أنتظر.

* * *

لفصل الخريف سحر خاص، بألوانه وأصواته ورائحته، ذاك الفصل الذي يسبق الشتاء بدفئه، ويلحق الصيف بخيره وديَمه وبرده.. كإحساسٍ متقلب، متأرجح بين شمس ومطر!

في خريف ذاك العام، ولدت بي أنثى، وبقيت تكبر في ثناياي، حتى خلعت رداء الطفولة إلى الأبد، كما تفعل الأشجار في هذا الفصل عندما تخلع لونها الأخضر، وتستبدل به حلة ذهبية مثيرة بألوان نارية، ثم تعرفت إلى أحاسيس جديدة كالاشتياق مثلاً، والاشتياق الشديد، فقد كانت جميع الوجوه وجه ماجد، وكل الأصوات صوته، عندما أغمضُ عينيّ أراه، وعندما أفتحهما أشتاق إليه.

الغيرة كذلك من المشاعر التي اكتشفتها على حين غِرّة، فقد كنت أغار عليه من كل شيء، بمنطق مراهقة عاشقة كنت أغار عليه حتى من أخواته، وكم كنت أحسد الثياب التي يرتديها، فهي تعانقه طوال الوقت تستنشق عطره، تتلفح بأنفاسه، وتسمع دقاتِ قلبه، ترى ما حال وسادته المحظوظة؟

خلق الحب في قلبي السعادة كإحساس جديد، وهنا بدأ الخوف يدبُّ فيّ، كل المشاعر يمكن أن أتعاطاها إلا السعادة، فقد كانت أبعد ما تكون من الواقعية، ما شكّكني في حقيقة ما يحدث لي، وبدأتُ أبحثُ في كيف أعرف أنني وقعتُ في الغرام؟

سألتُ معلمة اللغة العربية في حصة التعبير بعدما فرغت من قراءة نص أدبي رائع هيّضَ أشجاني، بحسن نية، عن الحب، فنظرت إليّ مطولاً وهي صامتة، ربما كانت تبحث عن الإجابة التي تناسبها، ضَحِكُ الفتياتِ المشاكساتِ أثارَ حنقها، فاعتبرت ما يحدث شغباً، والحديث عن الحب كلاماً فارغاً يضيع عليها زمن الحصة، وقالت محطمة صخرة الآمال على صخرة الواقع:

«لا حب قبل الزواج».

أثار كلامها حفيظة العاشقات مثلي، فقفزت إحداهن قائلة:

«معظم القصائد التي تُدَرِّسينها لنا كتبها شعراء في محبوباتهم: وجد ووداد وجوى لا مثيل له».

صفقّت العاشقات بحماس، ولم تغضب المعلمة، ابتسمت لنا، وقالت:

«على الرغم من أنني لا أفضل النقّاش مع مجادل أو جاهل، إلا أنني سأرد عليكن.. صحيح، فالشاعر لن يكتب إلا مشاعره، يترجمها في شعره، والحب غريزة خلقها الله، ولكن كل تلك القصائد التي نحفظها، وكل أولئك الشعراء الذين ندرسهم، ونعرب أبياتهم، ونعلل قولهم ونحلل كلماتهم وتعبيراتهم، ما كانوا وجدوا لو أنهم لحبّهم قد وصلوا».

صمت مريب أطبق على الصف، نتبادل النظرات بيننا، لقد ألجمتْ لسان الجميع، وقالت:

«عنترة بن شداد، قيس بن الملوح الشهير بمجنون ليلى وغيرهما، كانت حبيباتهم أجمل في البعد، فكتبوا أساطيرهم الشعرية، وقصائدهم الرقيقة في وصف العشق، والحرمان، والهيام بالذي يصعب عليهم نيله، ولو أنهم وصلوا إليهن لما كتبوا بيتاً واحداً عنهن، فقد قيل إن العين ترى ما لا تملك على غير أصله، فإذا ملكته رأته على أصله، فربما تبدّل حال الهوى بين قيس وليلى في غضون أيام لو أنه حصل عليها».

ضحكت المعلمة، وعَبَسْنا نحن، كانت منتشية بتأثير كلامها فينا، وعندما خرجت ساد الصمت على الجميع، حتى ثارت إحداهن، وقالت: لن تستطيع معلمتنا أن تغير رأينا في الحب، فهي في الأربعين من عمرها، ولم تتزوج بعد، ولا تعرف حقيقة ما نشعر به، فوافق على كلامها الكثيرات، أما أنا فجلست أفكر.. لا أعلم ما علاقة الحب بالسنّ؟ فالعمر بالنسبة إليّ مجرد رقم!

لا أدري ما الرابط بين الحب والزواج؟ فمريم متزوجة بأبي، وهي تشمئز منه وتكرهه، خالد متزوج بأمي، وهو لا يعتبرها شيئاً؟

نقلت السؤال الجديد إلى معلمة التربية الإسلامية التي صلّت على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عدة مرات، وقالت في هدوء:

«الحب بحد ذاته ليس حراماً».

هتف الجميع، وصفق بفرح، وما إن فرغنا حتى أكملت كلامها..

«الحب حلال، ولكن ما يترتب عليه، وما يصدر من المتحابين حرام».

رجع الهدوء ثانية.

«إن كان ألقي في قلوبكن بلا إرادة منكن، فالله لن يحاسبكن عليه، طالما لم تترجموه كلاماً وأفعالاً، أما إن كنتن تسعين له وتبحثن عنه، فهنا يختلف الكلام».

لم ننبس ببنت شفة، وبقينا على حالنا، فقالت أخيراً:

«لذلك لم يرَ الرسول عليه الصلاة والسلام للمتحابين إلا النكاح، ولأن زواجكن يا بناتي مستحيل في هذه السن الصغيرة، فعليكن بالعفاف والصبر».

وجوم وضيق شديد شعرت به، لا أريد أن أُغضب ربي.. فأنا أحب الله!

عليّ أن أسعى في الزواج، ولا أظن أنه صعب عليّ، على الرغم من أنني لا أزال في السابعة عشرة من عمري؛ فلن يتمسك بي أحدهم، ولن يحتجّ على زواجي منهم أحد؛ فلم أكن ذات قيمه بالنسبة لأسرتي، ولن يخاف عليّ أحد إلا

جدتي كما كانت دوماً.. هل حقّاً سينفذ خالد تهديده لي بأنه لن يسمح لأحد بالزواج بي، وأخذي منه؟

لن أخضع له، مشاعري الجديدة، أو ربما المراهقة جعلت مني مخلوقاً أقوى، متحدية، معاندة، متمردة، وأنا متأكدة أنه بزواجي سأنقذ نفسي من براثن والدي، لذا لن أتوانى عن إنقاذي!

ولأتزوج وأتخلص من الهمّ الجاثم على صدري، عليّ أن أتأكد من مشاعر ماجد.. لم أخشَ أن تكون مشاعري من طرف واحد، لغة العيون لا تكذب، أنا أستمع لمشاعري بعينيّ، ولا بد أنه ترجم تلك المشاعر بتلك النظرات، حسناً لست خبيرة بها، ولكن في عينيه كلام يقشعر له جسدي!

الحب جحيم يطاق، والحياة دون حب جحيم لا يطاق!

لا أعلم كيف أحببته، وأنا كنت أظن أنني قد كرهت كل رجال العالم، يبدو أن المراهقة مرحلة خارج نطاق المنطق لا تخضع لقوانين.

قالت لي جدتي وهي متربعة على الأرض، تشرب من كأس الماء لتنفث ما في فمها منه على الثياب أمامها، ترطبها وهي تكويها على المنشفة لتطمس الكرمشة منها، عندما تجرأت وسألتها عن أول مرة شعرت فيها بالحب:

«أول مرة شعرت فيها بالحب؟ لم أحب سوى جدك

رحمه الله، فقد كنت أصغر منك بسنوات عندما تزوجته، جدك هو حبي الأول والأخير».

تشردُ قليلاً، ولولا أنني منتبهة إلى المكواة لأحرقتْ الثيابَ دون شعور، وأضافت:

«علمني جدك أن الرجال يتمنون الحصول على لقب الحب الأول، أما النساء فلا يردن إلا أن يكنّ آخر حب في حياة الرجل».

عندما وجدتني أفكر فيما قالت شاردة الذهن غير منتبهة، شرحت لي متداركة ما حدث، بأنها لا ترى الحب الأول إلا فوضى هرمونات أدت إلى حماقة ممزوجة بفضول، وعليّ ألا أفكر به، فلا نهاية له إلا الذكرى. أما أنا فأرى أن الحب الأول هو الحب الذي ستذكره للأبد، فأنت مهما حييت لن تنسى الحبيب الذي على قلبه تعلمت أبجديات الحب، وماجد كان حبي الأول!

لم أستطع أن أحتفظ بهذا السر في صدري، ولم أقدر على إفشائه، فقررت أن أكتبه له، منها أُنَفّس وأتنفس، ومنها أتأكد من مشاعره.

صففت أوراقي، وصببت بها كل عواطفي، ثم قررت أن أعطيها له كإقرار له واعتراف بحبي!

لن أقوى على مصارحة أحد، فلا صديق لي في بيتي

أفتح قلبي له دون خوف، ولا أملك صديقة خارج بيتي؛ لأنني أخاف التطفل، فوضعت الكثير من الحواجز والأسوار!

ترددت لوهلة.. ماذا لو أعطيته الرسالة ورفضني، ماذا لو قال لي ماجد إنني أسأت فهمه، وإنه لا يكنّ لي أي مشاعر، ماذا سيحدث إذا علمت أختاه بالسر؟

سيُفضَحُ أمري، وتُنْهَش سمعتي، سأكون أكثر تعاسة من ذي قبل، ولكنني ما قدرت على عدم التجربة، فانتصرت هرموناتي، ورجحت كفة القلب على العقل، فمات المنطق ودفنت أشلاؤه بين المخ والمخيخ، ومثل أي مراهقة عاندت نفسي، وقررت أن أخبره حتماً بحقيقة شعوري، وإن كلّفني ذلك خسارته إلى الأبد، لن أجازف بفقدان ماجد أو ارتباطه ببنت أخرى، لذا عليّ أن أتصرف وبسرعة.

❋ ❋ ❋

الفصل الثالث

هل هذا صراخ مريم الذي يوقظني من النوم؟

لـم أزل وحـدي فـي الغرفـة، ولا أحـد بالقـرب منـي.. تناقضـات النفـس البشـرية لا حـدود لهـا، فعندمـا كانـت معـي رفضـت وجودهـا، وعندمـا غابـت عنـي اكتشـفت أننـي أحتـاج إليهـا بقربـي!

علـى الرغـم مـن أننـي متحاملـة عليهـا، إلا أن حضورهـا فـي هـذه الظـروف يمدنـي بالراحـة والطمأنينـة، وبمناسـبة التفكيـر بالطمأنينـة والسـكينة يـا ليـت جدتـي معـي.. يـا ليتهـا!

أشـتاق لهـا بـكل تفاصيلهـا، نبـرة صوتهـا، دندنتهـا المبحوحـة، وملامـح وجههـا القمـري التـي تصـرخ تجاعيـد الزمـن فيـه بمـا لاقتـه فـي حياتهـا.

اشـتقت لحكاياتهـا التـي تـدس الحكـم والـدروس بيـن سـطورها، أشـتاق لرائحتهـا، صلاتهـا، دعائهـا وحتـى للسـبحة

التي بين أصابعها.. غابت جدتي، فغابت الشمس التي كانت تشرق من عينيها كما أغيب الآن.. لماذا تصرخ مريم؟

* * *

أتذكر عندما كنت واقفة على باب المطبخ مستندة إلى عكازين أراقب جدتي وهي تعد مشروب «اليانسون»، فاحت رائحته المريحة، ففاضت الذاكرة بكل ما تضج به مرحلة الطفولة، لمَحَتْني شاردة الذهن فصبت لي كوباً، واقتَرَبَتْ مني.

جفلتُ عندما انتبهتُ، فلم أعلم كم مضى عليّ وأنا غارقة في بحر ذكرياتي، مدّتْ يدها بالكوب فسألتها دون مناسبة:

«ما الحب؟».

ردت عليّ وهي تضع كف يدها بحنان على خدي:

«ما بيني وبينك».

أعتقد أنها في تلك اللحظة عرفت السرّ، ولكنها خجلت من أن تصارحني، وفضّلَتْ ألا تحرجني، ولكنها أَبَتْ أن تترك الأمر عائماً، خوفاً من أن أتعرض للسوء.. اصطحبتني إلى الحوش، وجلست على البساط، بيدها كوبها العطري وكوبي، وجهزت لي كرسيّاً لأجلس عليه وكرسيّاً آخر لأمد فوقه أقدامي بالقرب منها، فجلست.

سـرى دفء لذيـذ فـي شـراييني، تنظـر جدتـي إلـى أصيـص الـورد مطـولاً مـن خلفنـا، فأنظـر معهـا وإذا بفراشـة صغيـرة تحـوم حـول الـورد بحمـاس:

«شـرنقة الطفولـة تتفتـح، فراشـة صغيـرة تتمـرد وتفـرد جناحيهـا لتطيـر فـي عالمهـا، فإمـا أن تحـذر وتسـلك مسـلكاً حسـناً فتسـلم، وإما أن تصبـح فريسـة سـهلة ينتهـي بهـا الأمـر سـجينة شـباك عنكبـوت».

نظـرت إليهـا وقـد فهمـت مـا تعنـي تمامـاً، دلقـت محتويـات الكـوب فـي فمـي بصمـت، ووددت لـو أننـي أطمئنهـا، فمـن ينجـو مـن خالـد مـن السـهل عليـه أن ينجـو مـن غيـره، لكـن الخـوف أن تقـع الفراشـة فـي حـب عنكبـوت!

قمـت مسـرعةً إلـى غرفتـي يـكاد عـكازاي يصطدمـان ببعضهمـا، قـرأت الخطـاب الـذي كتبتـه لماجـد مـرة بعـد مـرة، رششـت عليـه عطـراً وقبّلتـه بحـب، وضعتـه فـي مغلـف بسـيط، وخبأتُـه فـي كتابـي، ثـم ضممـت الكتـاب إلـى صـدري.. ماجـد دمـث الخلـق لا يمكـن أن يكـون عنكبوتـاً!

تلـك الليلـة لـم أنـم.. سـويعات تفصـل بيـن مشـاعري، أو بالأحـرى رسـالتي ومـن كتبـت لأجلـه، متـرددة جـدّاً، حتـى ظننـت أننـي سـأكتم الحـب فـي قلبـي، أسـتحي أن أمـد يـدي لـه بالـوداد، فيقطعهـا لـي، وفـي لحظـة ماتـت البهجـة فـي رحـم أوراقـي، عندمـا قـرّرت أن أخفـي تلـك العواطـف!

لاحظ ماجد اضطرابي في الطريق إلى المدرسة، كنت أتحاشى عينيه الناطقتين اللتين كنت أنظر إليهما كل يوم من خلال انعكاسهما في المرآة الأمامية، بل إنني لم أرفع رأسي أبداً ولم أبادله أطراف الحديث، وكأنه في عالم، وأنا في آخر!

لقد كان منتبهاً لي، لابد أنه يفتقد تلك النظرات الخجولة التي كنا نتبادلها سرّاً، فسألني إن كان كل شيء على ما يرام، فما استطعت الردّ.. أعرف نفسي جيداً، قد أفقد السيطرة على دموعي أمام أختيه، وينكشف أمري، فهززت له رأسي بالإيجاب، وأنا أمسك بذاك الكتاب جيداً، والذي أخذَتْهُ مني مها حتى تساعدني على النزول من السيارة، فجأة وقعت حقيبتي من يد ريم على الأرض، وتناثرت أغراضي، فانشغل الكل في تجميعها، وبقي الكتاب على المقعد الخلفي حيث أجلس! ما أبشع الحاجة إلى الآخرين!

في المدرسة بدأت الفتيات بالتقرب مني؛ فقط لأنهن استشعرن الحب في كلامي، في هذه المرحلة حيث تكثر القيود والأغلال التي تُكبّل المراهق، وفي خضم الصراعات التي يعاني منها بين غرائزه ومجتمعه، وتذبذب العواطف نبحث عمن يشبهنا؛ لأنه سيستمع بلا أحكام ولا مواعظ، سيتفهم ويتقبل، بل يشعر بك؛ لذا سينصحك بلا غضب ولا صراخ، ولا حتى بانتقاد جارح أو سخرية!

أعتقـد أن أجـواء المدرسـة فـي ذاك اليـوم صـارت مختلفـة لطيفـة، وبـدأت أنسـجم ببـطء.. الكثيـر مـن البنـات يتأجّجْـن بمشـاعر الحـب ويتفجّـرْن، وإن كان المحبـوب مطربـاً أو ممثـلاً، شـاعراً أو إعلاميّـاً، بـل حتـى اللاعبيـن فـي مختلـف الرياضـات، والغريـب أن هـذه المشـاعر سـواء كانـت مـن طـرف واحـد أو متبادلـة، أو كانـت حقيقيـة أو مجـرد إعجـاب، فإنهـا كانـت تؤثـر بالسـلب فـي التحصيـل الدراسـي، ولا ألومهـن، فمحاولتـي التركيـز فـي الكتـب والدراسـة، وقشـع صـورة ماجـد مـن علـى صفحاتهـا غالبـاً مـا تنتهـي بالفشـل.

كمـا أننـي لا أذكـر مـا تقولـه المعلمـة؛ لأننـي ببسـاطة حاضـرة الجسـد منصرفـة الذهـن عنهـا، فقـد كنـت أعيـش أحلامـي مـع محبوبـي!

تمنيـت لـو أحظـى بجرعـة مـن الجـرأة، حتـى أسـتطيع أن أنهـي الموضـوع كمـا أتمنـاه، ولأننـي لـم أسـتطع أن أخطـو أي خطـوة للتقـرب مـن الشـخص الـذي أودّه، شـعرت بـأن الدنيـا غيـر عادلـة، حتـى إنهـا عندمـا تمخّضـت لأجلـي.. أنجبـت لـي سـعادة مبتـورة الأطـراف!

حيرة في الحب؛ هل سأمضي أم سأقضي؟

فـي نهايـة اليـوم اتَّجهـتُ مثقلـةً بهـمٍّ جديـد إلـى سـيارة ماجـد، ولا أزال بصعوبـة أصـدّ عنـه متعمـدة، أحـاول أن أروّض نفسـي، أكبـح جمـاح فـؤادي، ظننـت أننـي سـأهذّب جوارحـي إذا مـا

وضعت حدّاً بيني وبينه، ولكن عصي على القلب الاعتراف بالحدود بيننا! فما قدرتُ إلا أن أسترق النظرات منه.. وشهقت!

فزّت مها، وخافت ريم، فبررت لهنّ أنني اعتقدت أن حادثاً ما سيصيبنا وأن السيارة كادت تصطدم بأخرى، واقتنعتا بكلامي إلا هو.. أشعر بثقل نظراته، أشعر بها جيداً.

كان ماجد يضع كتابي في حجره.. أنا متأكدة بأنه كتابي، وكيف لا أتعرف إليه وهو الذي سهرت معه حتى الصباح، الكتاب الذي يحمل وسط بطنه مشاعري في رسالة... المكتوب الذي أشعل فتيل الحرب بين العقل والقلب. والذي لا يزال لم يحدد موقفي إن كنت سأدشن العلاقة أم لا!

من شدة التوتر شعرت بأنني أسبح في عرقي، ما رفعت عيني عن الكتاب من شدة التوتر والإحراج، وحتى نصل إلى البيت كانت هناك عشرات الأسئلة تصفع رأسي تنتظر ردة فعل واحدة.. أي إجابة!

وأخيراً، وصلنا إلى المنزل، حيث فتحت مها الباب لي، وساعدتني على الخروج من السيارة، في حين اقتربت ريم وبيدها العكازان وحقيبتي التي علّقَتْها بأكتافي، لم أتحرك من مكاني قيد أنملة، هن ابتعدن وأنا مازلت أقف مستندة إلى باب السيارة أنظر إلى الكتاب.

فجأة تحرك ماجد ففززتُ، وكدت أن أقع دون أنتبه إلى

حركته والقصد منها، تحركت مرغمة، لقد كان عليّ الابتعاد سريعاً قبل أن تخرج الحنونة لتساعدني كما تفعل كل يوم، وما إن أعطيته ظهري حتى شعرت بشيء يقبض على روحي. أردت البكاء بشدة، ولكنني أقنعت نفسي بالصبر لمسافة خطوات.. خطوات فقط ثم أعبّر عما أريد كما يحلو لي.

«أسماء».

رن صوته في أذني، فهزّ قلبي، لقد كانت هذه المرة الأولى التي يناديني بها، وأول مرة أسمع هذه النبرة منه، وأول مرة أحب بها اسمي.. كانت أول مرّة للعديد من الأشياء!

التفتُّ إليه بصعوبة، فإذا به يناولني كتابي.

لم أعلم كيف آخذ الكتاب منه، ويداي تمسكان بالعكازين، هنا احتضنت عيوني نظرات عيونه وارتعشت، فأنا لم أتعرف إلى عينيه في تلك اللحظة، وكأنني أراها للمرة الأولى، فهي تبرق أثناء تمعنه فيّ ببؤبؤ متمدد!

تلك لم تكن نظرات عادية، بل كانت مناجاة.. لم أكن غبية، لابد أنه علم بالأمر، فأطرقت إلى الأرض في حياء، مرتعشة.

أما هو فمدّ يده ناحيتي، فازدادت الرعشة، حتى إنها صارت جليّة للعيان تفضح سري المكنون، لا أعرف ما ينوي فعله، ولا أدري كيف عليّ أن أتصرف، حمداً لله.. يده امتدت

إلى حقيبتي دون أن يلمسني، فتحها ووضع الكتاب بداخلها، وكأنه ختم على قلبي عشقه، وهمس بي:

«تركت لك ردّاً في الكتاب، وضعته في المكان نفسه».

لم أعلم متى دخلت أختاه إلى السيارة، ومنذ متى جدتي تراقبنا حتى نادتني، نظرت إليها مرة، ثم نظرت إلى سيارة ماجد.. كان قد رحل.

* * *

«إلى أين رحلت أمي؟».

لا أحد يجيبني، كلما استدعيت ممرضة أسألها تهز لي رأسها بغباء!

صرخت مرعوبة، أناديها مذعورة فيدخل عليّ فوج من الرجال؛ طبيب، شرطي، محقق، مسعف، والكثير من الممرضات!

لقد سمعتها تصرخ منذ قليل:

«ماذا فعلتم بمريم؟».

لن أتكلم معكم، ولن أخبركم بأي شيء إن لم تكن والدتي معي. ينظرون إليَّ بصمت، فأشيح ببصري عنهم.

بقعة ملونة في السقف شدت انتباهي.. أنظر إليها مطولاً، لم أعد أسمع الجلبة من حولي وأنا أنظر إلى السقف، أتذكر

عندما سألت جدتي باستغراب، وهي تدقّ الهريس بوساطة «المنحاز» بمشقة:

«لماذا لا تختار وسيلة أسهل عليها لطحن الحنطة، أو حتى تشتريها جاهزة من الجمعيات التعاونية، خصوصاً أنها مسنة متعبة، ولم تعد قوية كما كانت».

ابتسمت لي وقالت إنها تعد الهريس كما كانت والدتها تعده، ولن تغيّر طريقتها مهما تغير الزمن وتبدل، ثم استرجعت ذكرياتها، وقالت لي: إنها كانت ترقص بفرح متعلقة بطرف ثوب أمها، وعلى دقات المنحاز ممتزجاً بصوت والدتها الدافئ، وهي تغني كما يغني بقية النسوة آنذاك عند طحن الحنطة.

تذكرت جدتي والدتها، ثم غنت لي الحنونة ببحتها وحشرجة صوتها ما كانت أمها تغنيه:

«يا الله ويا الله، يا الله ويا الله، يا الله ويا الله يا كريم يا هو».

بلا سابق إنذار توقفتْ عن العمل، وانخرطتْ في البكاء، فاحتضنتها حتى هدأت وقالت لي: إن الحديث عن والدتها يوجعها، ما أوجع الذاكرة حين يختارها أحبتنا ونسكنهم بها، فابتلعتُ لساني، لم أستطع أن أواسيها، فوالدتها كانت قد توفيت منذ أكثر من ثلاثين عاماً، هي قرأت التعجب في عيني وقالت لي:

«موت الأمهات ليس بأمر يسير، إنه أمر لا يطاق. لن يشعر به إلا من ماتت أمه.. كأن الحياة تموت بموتها».

أُقبّلها بحب، كم هي رقيقة المشاعر فائضة الحنان، فتمسح على رأسي، وتخبرني أن لا أحد يشيخ ويكبر في عين أمّه، قلوب الأمهات لا تنسى ولا تنام، كما أنها لا تقسو.

«أين أمي؟».

أنظر إلى الجمع من حولي بحثاً عن مريم، الخوف يطوّقني بلا رحمة.. أتبول على نفسي.

تصرخ الممرضة بي، فيلتفت الجميع ناحيتي، وتغلي الدماء في عروقي من شدة الخوف والحرج.

أغطي عيني بذراعي.. الظلام مريح.. الظلام.

* * *

بعد مرور ثلاثة أشهر على حادثة الدهس.

كنت قد تخلصت من الجبيرة والعكازين، وعدت حرة طليقة لا أنتظر الرحمة أو الشفقة من أي مخلوق لينجز لي عملي، وإن كان جل ما أريده كأساً من الماء! بقيت أتبادل وماجد الحب مكتوباً في رسائل، والآن وبعد أن تعافى فخذي سأعود إلى الباص، وعليّ أن أجد السبيل إلى توصيل تلك الخطابات اللذيذة.

كنت قد أثبتُّ براءتي لأمي من إغواء خالد، أو مما كانت تظنه.

فعندما استشعرت الخطر الكبير الواقع عليّ عندما أصبحت فريسة سهلة، مع عدم قدرتي على الحركة، أو حماية نفسي كما أوصتني، استغلّتْ كل فرصة ممكنة لتنام الليل في غرفتي، وفرحتُ بلا سبب؛ لأن وجودها معي كان مطمْئِناً أكثر من تغيير مفاتيح وأقفال الباب!

استغربت الحنونة لهذا الاقتراب الذي لم تتوقعه قط، وسعدت به، فلم تسألنا عنه، ولكنها كانت دائماً تسأل أمي إن كان خالد موافقاً على هجرها غرفة نومه، ولم أسمع رد مريم أبداً!

كنت أستشعر الغيرة في عيني جدتي الحبيبة عليّ فأسعد به، ما دفعني إلى أن أهمس لها في مرة لأطيّب خاطرها:

«ليست الأم من تنجب فحسب، حتى قطط الشوارع تحمل وتلد، إنما الأم هي التي تربي.. أنتِ أمي وستبقين أمي، وحبّاً يحكيه دعائي طالما حييت».

احتضنتني بغتة وبقوة، وبقيت تشدني إلى صدرها حتى غرقت في أحضانها، غمرني الحب والأمان فانهلت عليها تقبيلاً أزاح الهمّ الذي كان يخنق عبرتها.. هل قصرت قامتها أم أنني ازددت طولاً؟

أخيراً، سمعت أمي بنفسها صوت والدي، وهو في غير وعيه خلف باب غرفتي، يحاول أن يستدرجني، وعلى غير عادتها لم تندب حظها، وتقبل بواقعها المرّ، بل فتحت الباب، وهجمت عليه تضربه بكل قوتها.

تبادل الاثنان الضربَ بصمت، لئلا تعرف جدتي ما يحدث، واكتفيت أنا بالسكوت. تلك الليلة كانت أمي أقوى منه، وقد عجز عن أن يستقيم ظهره، ولا أعلم إن كان الضرب قد منعه من الاقتراب مني بعد تلك الليلة، أم أنه خجل من افتضاح أمره عند أمه، أو ربما خاف من أمي أن تكون سبباً في سجنه!

الحنونة وماجد.. لم أكن أحتاج للمزيد لأسعد، حياتي كانت كاملة، ولأول مرة أتذوق طعم الهناء.

* * *

عاملة المطبخ تدفع باب غرفتي، وتدخل، وبيدها صينية الطعام.. توقظني!

تحدث ضجة وسط امتعاضي، فتضعها على الطاولة، ثم تقرب الطاولة مني، تنظر إليّ نظرات مريبة، أزجرها فتبتعد عني، وفي طريقها للخروج أتذكر مريم، فأعود وأنادي العاملة في رجاء:

«أين أمي؟».

تنظر إليّ مرة أخرى بلا ردة فعل واضحة، ثم تخرج

وأنـا أصـرخ بهـا وأشـتمها.. أمسـك بجهـاز المنـاداة وأسـتدعي الممرضـات.. جرسـاً يتبـع جرسـاً.. لكـن لا حيـاة لمـن أنـادي!

أفتـح غطـاء الصينيـة بغضـب، وأصـوب الأطبـاق إلـى البـاب، طبقـاً وراء طبـق حتـى تناثـر الأكل علـى الأرض فـي كل الأرجـاء، وفاحـت رائحتـه لتثيـر معدتـي، وتدفعهـا لاسـتفراغ مـا بهـا!

ومـا إن فرغـتُ مـن التقيـؤ حتـى قـررت أن أخـرج أنـا بنفسـي لأبحـث عـن أمـي، اسـتجمعت قـواي الخائـرة بصعوبـة، ووقفـت علـى قدمـي غيـر واثقـة بهـا، ولأخطـو خطـوة واحـدة فكـرت كثيـراً، ولكننـي خطوتهـا بمسـاعدة علاّقـة كيـس المحاليـل.

اسـتندت إلـى العلاّقـة، ومشـيت بـه حافيـة إلـى الخـارج، وأنـا أشـعر بالـدوار، وكأننـي أمشـي علـى هـلام. أحـس بالتعـب ولكـن كان القلـق أكبـر مـن تعبـي. خرجـت وأنـا أصـرخ بأصـوات ليسـت مفهومـة، لـم تسـتوعبها الممرضـات مـن حولـي.

لا أحـد يفهمنـي.. هـنّ ينظـرن إلـيّ ببلاهـة، وأنـا أنظـر إليهـنّ بتعجـب: كيـف يعتبرونهـن ملائكـة رحمـة، فـي حيـن أن واحـدة منهـن لـم تـرأف بحالـي وتدلنـي علـى أمـي؟!

يحاولـن إعادتـي إلـى سـريري وأحـاول أن أقـاوم.. حتـى هويـت علـى الأرض باكيـة متوسـلة، إحداهـن تحـاول تهدئتـي، والأخـرى تربـت علـى كتفـي حتـى أراعـي حـال المريضـات فـي الجنـاح، ومنهـن مـن حاولـت حملـي عـن الأرض، أمـا كبيرتهـن

فقد كانت تتأكد من سلامة المغذي في يدي، وتدفق المحاليل إليها، ثم طلبت الطبيب على وجه السرعة.

ضقت ذرعاً بهن، لا أريد منهن شيئاً إلا أمي التي سمعتها تصرخ، سمعتها بأذني تصرخ.. ماذا حدث لها؟ لماذا تركتني فجأة؟ وإلى أين ذهبت؟

يقترب مني الطبيب المناوب، ينظر إلى حالي برأفة، يعاتبني على عصبيتي، شراستي، ضعفي وعدم تحملي، فأبكي نفسي، جدتي، أمي، وماجداً، ماذا عليّ أن أتحمل بعدُ يا دكتور؟

تعيدني الممرضات إلى فراشي، يحقنّني وأنا أنادي أمي.. يسري المخدر في عروقي.. فأنام!

* * *

ازدهرت علاقتي بماجد ونَمَتْ.

كانت الرسائل، الصور حتى الأغنيات والإهداءات تتنقّل بيننا بشكل يومي تقريباً عن طريق أختيه، وعبر هاتف منزلنا، إذ أتسلل بخفة لأنقل الفيشة والهاتف إلى غرفتي كاللصوص، وأنا أستلذ بالأدرينالين، فلم أملك هاتفاً محمولاً بعدُ، ولا يزال وصلنا عبر الإنترنت.

متى ما خرجت أمي للاتصال بأسرتها خرجت معها، أتحين الفرصة لإرسال رسالة إلكترونية لحبيبي بها بطاقات رومانسية موسيقية، وقصائد غزل، ويحالفني الحظ إذا جلست

أمي تحادث الجيران قليلاً قبل عودتنا إلى المنزل؛ ليتسنى لي التحاور معه عبر برنامج الماسنجر للمحادثة.

وكأن روحي سلخت جلدها القديم وطرحته، فتبدل مزاجي بين أسرتي، حتى إن وجود خالد في البيت لم يعد يعنيني. ولم يفرح أحد لتحسن حالي وتغير نفسيتي للأفضل فرحَ جدتي.

كلما وقعت عيني عليها وجدتها تنظر إليّ مبتسمة بلا شعور، وعندما سألتني عن السر.. ضحكت ولم أستطع أن أجيبها، فليست كل حقيقة تقال، واكتفيت بالرد عليها بأن الله يلطف بي، ويستجيب لدعائها لي.

في ليلة من ليالي أبريل من عام 2000 اتصل ماجد على هاتف بيتنا الثابت في الساعة الثانية بعد منتصف الليل كما اتفقنا تماماً، تهامسنا بشوق، وضحكنا بشغف، ثم قال لي بنبرة جادة وحادة بأنني سأشاركه حياته، وأن باباً سيغلق علينا ينمو من خلفه حبنا ووسادة واحدة ستحمل رأسينا وتكبر عليها أحلامنا.

قال لي بأنه رجل يخاف ربه، ويريدني في الحلال على سُنّة الله ورسوله.

لم أعد أسمع ما يقول، لم أصدق ما قال، ذرفت دموعي فرحاً، وسجدت على الأرض فوراً شاكرة حامدة، وهو لايزال على الخط، ثم اتفقنا في تلك المكالمة ألا تؤثر هذه المكالمة في

تحصيلي العلمي، ووعدته بأن أجتهد وأُسخر كل طاقتي للمذاكرة.

سيتقدم ماجد لطلب الزواج بي من والدي بعدما أنتهي من تقديم اختبارات الصف الثالث الثانوي النهائية، وهذا يعني بعد شهر من الآن.

في تلك الفترة ما عرفت سوى الدراسة، والدراسة فقط، بذلت كل ما أقدر عليه حتى أعوض تلك الأيام التي قضيتها في المستشفى بعد حادثة الدهس، والحصص التي سرحت بها أنسج أحلامي، أفكر كيف أحققها، ولأعوض الدروس التي كنت أضيعها في كتابة وتخطيط ورسم اسم ماجد على دفاتري وطاولتي وكتبي دون انتباه.

لم يعكّر مزاجي إلا ارتباطه الروحاني بالمولى عز وجل، فقد زاد ذلك من عذابي!

إلحاحه عليّ بالدعاء في كل صلاة بأن ييسر الله هذا الارتباط الشريف، وأن يبارك لنا زواجنا، وأن تكون هذه زيجة العمر التي لا فراق فيها ولا افتراق، أيقظ ضميري فأنّبني، وتمنيت ألا يستيقظ أبد الدهر، ولكن هيهات!

تناقض بين نقاء سريرتي وطهارة قلبي، وبين إلحاحه بالاعتراف والتخلص من الذنب، فماجد رجل شهم وطيب. دخل البيوت من أبوابها، لم يكن انتهازياً بأي طريقة، ولم يلعب بمشاعري، لم يَقبل عليّ الخطأ، ولم يرضَه لي، لا يستحق مني أن أغشه أو أخدعه، فما بُنِيَ على باطل فهو باطل!

يا ليتني فقط كنت كما يتخيل، فعلى الرغم من كل الحيل النفسية التي مكنتني من العيش والحياة، إلا أنني أعلم تماماً ماذا حدث لي؟ وماذا فعل بي أبي؟ ولكنني قررت ألا أفكر أبداً في الموضوع حتى أنهي اختباراتي.. لقد كنت أحفظ الله في السر والعلن، ألم يأمرنا بالستر وهو أعلم بالنيات؟

في نهاية كل يوم وبعد تقديم كل اختبار يتراقص الماضي أمام ناظري فاحشاً، يشعرني بالخزي والهوان، مع أنني لم أكن سوى ضحية عفيفة.. يا ليت عندي من أستشيره أو أسأله، فيريح لي قلبي.. ماذا عليّ أن أفعل؟ حتى الكتب الموجودة في المكتبة المدرسية لم أجد بها ضالتي.

أن أكون ضحية رغماً عني يكفي، فلا ضرورة لضحية أخرى، أنا لن أؤذي من أحب، ولن أخدع من أعشق، ولن أعبث بمن وقعت في غرامه، فأنا فتاة شريفة، وإن كنت ملوثة الجسد.

كان هو متحمساً أكثر مني ومتشوقاً، حتى انتهت الاختبارات التي لم أشعر فيها، لأول مرة في حياتي، بالقلق أو التوتر، فما كان ينتظرني عقبها أمر أشد رهبة وأقسى صدمة، قد تنتهي علاقتنا بفضيحة، ولكن أملي في الله كبير، أنا على يقين بأنّ ربي سيجبر كسر قلبي، وثقتي في ماجد عظيمة، سيرحم ضعفي وقلة حيلتي.

حاولت أن أبتعد قليلاً عنه، ربما يعود إليّ رشدي، فضّلت

ترك مسافة بيني وبينه، حتى لا تؤثر أحاسيسي في قراري، احتج ماجد واعترض، لم تعجبه الأسوار التي أحاطت بي فجأة، ولكنه لم يتخلَّ عني، وبقي ينتظر عودتي له كما كنت وأكثر.

قضيت ساعات طويلة أفكر؛ ترى كيف أفصح له عن مصيبتي؟

كم أرثى لحالي وأشفق على نفسي، لم يكن من السهل أبداً الحديث عن سوء يصيب طفلاً، فكيف بطفلة يهتك عرضها، ويستباح لحمها، ويُستلذ بجسدها؟

فعلة يرفضها الربّ والمنطق، ولا يتقبّلها العقل، جريمة تهتز السماوات لها، تحرمها كل الأديان، وتخرق جميع القوانين والأعراف.. لا تمت للآدمية بصلة.

آه.. كم كنت أفكر في الانتقام وقتل والدي، وما استطعت!

تساؤلات كثيرة طوّقتني.. من أين أبدأ الكلام؟ ماذا عساني أقول؟ هل أخفي جزءاً من الحقيقة أم أخفف وطأتها عليه؟ هل أسرد عليه قصتي منذ أن كانت تفوح مني رائحة الحليب أم عندما كدت أموت دهساً وأنا أهرب منه؟ السؤال الأهم كيف سيبدو شكلي؟

لن أقوى على مواجهته وأنا أخبره بما مرّ عليّ من مرارة، فأنا مازلت أتزين بكبرياء مزيف، ولن أقدر على رفع رأسي أمامه، على الرغم من أنني لم أكن سوى طفلة مجني عليها،

لـذا قـررت أن أكتـب لـه مـا يختلـج فـي صـدري، كمـا كتبـت لـه عندمـا أحببتـه، قـررت أن أسـتبيح حرمـة الـورق، أن أنثرنـي بيـن السـطور والكلمـات، فخلعـت عنـي ثـوب وقـاري، وكتبـت مـا جـرى وكان، وكيـف سـارت أقـداري.

كتبـت وكتبـت ودونـت بخجـلٍ أوزاري، سـحقت كيانـي فـي رحـى ذاكرتـي، وأنـا علـى يقيـن أنـه سـيقدِّر موقفـي، بـل سـيقف معـي ويسـتر عليّ، أنـا أؤمـن بماجـد تمـام الإيمـان.

كتبـت ودعـوت وبكيـت طـوال الليـل.. حتـى إننـي حكـت مـن خيـوط الفجـر سـترة لآمالـي، والجميـل مـن أحلامـي، ثـم سـكبتها علـى سـجادة صلاتـي، وأنـا أرفـع يـدي للخالـق، عـل وعسـى أن يسـتجيب لدعائـي، ثـم نمـت حيـث كنـت.

صراخ مريم!

أفـزّ مـن نومـي، وأركـض ناحيـة البـاب، أدوس علـى ثـوب الصـلاة الـذي نمـت بـه أكاد أن أقـع، فأتجمـد فـي مكانـي خوفـاً أتحسـس فخـذي لاتـزال المسـامير بهـا، تبكـي الحنونـة بحرقـة، يعلـو عويـل وصـراخ.. أخـاف فأتبـول علـى نفسـي!

* * *

«ماما»

أناديهـا وأنـا مـا أزال أغمـض عينـي، أيـن ذهبـوا؟ كيـف يختفـي الجميـع مـن حياتـي فجـأة؟!

أفتح عيني بصعوبة.

ها قد عدنا إلى نقطة الصّفر؛ على المنومات، والمهدئات، والأدوية المخدرة التي تؤثر في وعيي، وإحساسي، وشعوري، وكأنني أطفو على الماء! أنظر إلى من حولي بتثاقل، وإذا بشرطي يقف عند الباب، استنكرتُ وجوده.. لماذا يعاملونني كالمجرمة؟!

بما أنني حاولت الانتحار؛ أي أنني حاولت أن أتخلص من الحياة بكل ما فيها؛ وهذا يعني أنني لم أعد أرغب بشيء، حتى روحي لا أريدها. فقد تساوت الأمور عندي؛ الحبس، الإعدام، أو عودتي إلى البيت، وبالأحرى إلى الجحيم.

أتذكر البيت.

أحاول تذكر ماذا حدث في البيت يوم أردت أن أسلّم ماجد رسالة الاعتراف.. يوم المصارحة، أو يوم فضح السرّ الذي حملته على كاهلي سنوات طويلة!

* * *

عرفت أن جدتي أمّ مريم التي فتحت لنا قلبها قبل بيتها في أغسطس 1990، ماتت بينما كانت تستحم عندما ارتفع ضغط دمها وفقدت الوعي، سقطت في حوض الاستحمام وغرقت هكذا وبكل بساطة! تتعدد الأسباب والموت واحد.. لم أسمع أبداً عن إنسان يغرق في حمام بيته، حتى غرقت جدتي، وابتلعت من الماء ما ملأ رئتيها ونفخ جسدها...

المسكينة مازلت أتذكرها جيداً. كم حزنت على موتها، وأحزنني أكثر حال أمي.

أمي كانت منهارة تماماً، حتى إنني لم أستطع أن أعبر عن حزني من شدة جزعها وصراخها. ابتلعت دموعي حتى إنني لم أقدر على الاقتراب منها، وبقيت في مكاني أرقبها من بعيد، لا أتوقع أن يواسيها مواسٍ، ولا يعزيها معزٍ، أو يخفف عنها لوعتها بفقدان والدتها شيء.

لوهلة حِرت في الذي جرى، وفي ما رأيت، لأن وضع والدتي في هذه اللحظة يتعارض مع وضعها في السابق، عكس الصورة التي وضعت نفسها في إطارها منذ أن وعيت على هذه الحياة..

لطالما كانت مريم ناقمة على أسرتها، حاقدة، كما أنها افترقت عنهم منذ زمن بعيد، فهل تبالغ في ردة فعلها؟! أم أن العلاقات الأسرية لا تمسها شفرة الزمن، ولا يشذبها مقصّ البعد؟!

حينها تذكرت ما أخبرتني به الحنونة عن موت الأمهات، فعلمت أن مصابها جلل، حتى إنّه من شدة وقع الخبر عليها ووجلها أشفقَ عليها عديم الإحساس خالد، وسمح لها بالسفر لتحضر عزاء والدتها.

أردت الذهاب معها لشدّ أزرها، ومساعدتها، لكن الحنونة أبت، رفضت، وتحججت دون تركيز في بداية الأمر بالمدرسة،

ثـم علمـت منّـي بـأن المدرسـة ودعـت طالباتهـا؛ ليبـدأن إجـازة الصيـف، فتعـذرت بضعفهـا ومرضهـا وحاجتهـا إلـيّ، ففهمـت بأنهـا حجـج واهيـة، وعندمـا علمـت مريـم برغبتـي ورفـض جدتـي ومـا احتجّـت بـه، صَرَفَـت النظـر عـن سـفري معهـا.

فهمـت تمامـا بأنهـا لا تريدنـي معهـا، حتـى عندمـا وصلـت سـيارة الأجـرة التـي سـتقلها إلـى المطـار دلفـت تجاههـا، ولـم تنظـر إلـى الـوراء لتودعني، ولـم تنبـس مـع الآخريـن ببنـت شـفة!

شـعرتُ بغصـة وكأننـي فطنـت لمـا تفعـل، وخفـت أن تتحـرك السـيارة ولـم أحـظَ بعنـاق بعـد، فاقتربـت منهـا أناديهـا هـي تسـمعني أنـا متأكـدة مـن ذلـك، ولكنهـا تتجاهلنـي، ومـا إن شـعرت بـي أقتـرب منهـا حتـى رمـت بنفسـها علـى الكرسـي الخلفـي وانطلقـت السـيارة دون أن تنظـر إلـيّ.

وجدتنـي فجـأة أركـض وراء سـيارة الأجـرة حافيـة، أتوسـل إليهـا أن تقـف، فلـم تقـف. أسـمع صـوت شـتائم خالـد مـن بعيـد، حاولـت اللحـاق بهـا باكيـة، صارخـة، وخائفـة، حتـى أدميـت كعـب قدمـي دون فائـدة.

فخـذي تؤلمنـي، كلّ خطـوة أخطوهـا أشـعر بكهربـاء تسـري فـي عظامـي.

حدث الذي توقعته: هربت مريم.. هربت وحدها.

* * *

«هربت؟»

أسأل الممرضة التي تجفل من سؤالي، وهي تحاول ترتيب الأجهزة من حولي بصمت. أستجمع قواي، أمسك بيدها بعنف فتخاف مني، وتحاول أن تحرر نفسها.. أسألها مرة ثانية وأنا أصرّ على أسناني:

«هل هربت مريم مجدداً؟».

تصرخ الممرضة وتستنجد بزميلاتها، يدخل شرطي، يفك يدي عن يدها، وأسأله ببلاهة:

«هل كانت جدتي تعرف بخطة مريم؟ لماذا منعتني من الذهاب معها؟ هل اتفقتا على خيانتي؟»

هذه المرة طبيب لا أعرفه، يركبُ لي قناعاً، ما إن استنشقت ما ينفثه حتى تخدرت، وفقدت الإحساس بما حولي، فلم أقوَ حتى على الكلام.

أغمض عيني.. تهرب دمعة.. أنين!

* * *

أئنّ، وتصطكّ أسناني من شدة البرد، والحمى والحرارة.. جدتي تضع على رأسي كمادات باردة لا أحس بها، فكلّ ما بي يحترق.

هروب أمي بلا وداع، وكأنني لم أعنِ لها شيئاً، تجاهل

ماجـد الرسـالة الأهـم فـي حياتـي وكأنـه لـم يتسـلّمها، عـدم رد جدتـي علـى أسـئلتي واتهاماتـي لهـا.. كلّ ذلـك أشـعل فـيَّ نـاراً حوّلـت حياتـي إلـى رمـاد.

كم مرّ علينا؟

ترجونـي جدتـي أن أخـرج مـن الغرفـة، أن أسـمح للشـمس بالدخـول، أن تفتـح النافـذة لأزيـح الكـرب والغـمّ الـذي غـزا سـماءها منـذ شـهر.

«هل الهاتف معطل؟»

أسـألها فتنتحـب، تعتقـد أننـي أتحـرى تواصـل مريـم، لكننـي كنـت أنتظـر اتصـال ماجـد.. الأمـل الأخيـر لـي فـي الحيـاة.

يـزداد أنينـي، وتـزداد الحنونـة توسـلاً أن أذهـب معهـا إلـى الطبيـب؛ فقـد خسـرت مـن وزنـي وعافيتـي الكثيـر، حتـى شـعري بـدأت أفقـده ويبـدو أننـي سـأفقد صوابـي.

تقحـم جدتـي ملعقتهـا بمـا تحتويـه فـي فمـي، ولا أقـدر علـى ردّ أو بصـق مـا وضعـت، فأبتلعـه بـلا حـول ولا قـوة منّـي.

تتصـل علـى أمـي عـدة مـرات تحلفهـا باللـه أن ترجـع لـي قبـل أن أمـوت مـن شـدة الحـزن، وسـتدبر هـي هروبهـا للأبـد بنفسـها بعـد أن أتعافـى، تفتـح لـي المذيـاع فأطلـب منهـا أن تغلقـه، نقلـت التلفـاز إلـى غرفتـي فلـم أسـمح لهـا أن تشـغله، حتـى إنهـا اشـترت لـي هاتفـاً نقـالاً، لكننـي لـم ألمسـه.

كانت تنادي صفية لتعاونها على استحمامي، وتبديل ثيابي وتمشيط شعري. عدت مجدداً طفلة أحتاج إلى من يعتني بي ويدارينـي. طفلة يتيمة الأبوين وهما على قيد الحياة.. طفلة لم يكن ذنبها إلا أنها ولدت لزوجين قاسيي القلب لا يستحقانها.

عادت جدتي كما كانت، تقرأ عليّ ما تحفظ من القرآن، تحكي وتقصّ عليّ قصصاً لأنام، تدلّك ظهري، وتمسح على رأسي، تقبّلني بحبّ، وتدندن لي، لكن كل هذا لم يعد كما كان، فكلّ شيء بالنسبة لي.. مات!

كلّ يوم يمرّ عليّ أزداد فيه ضعفاً وخمولاً، ولولا أنّ جدتي كانت تحركني، وتلطخني بالزيوت لَتَقرّح لحمي وتآكل!

خطر لي فجأة وأنا في تلك الحالة، ماذا لو سقطت الرسالة من الكتاب الذي أعطيته لريم حتى توصله لماجد؟ ربما لم يقرأ الرسالة، وبقي ينتظر مني اتصالاً، وبسبب ظروفي هذه لم أتواصل معه.

صفية تخبر جدتي بأنّ معالجة شعبية تستطيع أنّ تفك ما يربطني، وتبطل ما يسحرني، وستعرف علتي.. إنّ كانت عيناً أصابتني فحسدتني.. تصدقها ببساطتها وسجيتها دون أن تسأل نفسها من تراه يضرّ بنتاً نكرة؟

وضعت الهاتف بالقرب منّي مع كأس من الماء، علبة

دوائي، وطبق فاكهة. أخذت بعضاً من أغراضي وخصلة من شعري، ووعدتني بأنّها لن تتأخر عليّ ثم خرجت.

أول ما فعلته هو الاتصال ببيت ماجد.. رنّ الهاتف طويلاً دون رد، فأعدت الاتصال، وكلّي أمل أن يرد عليّ، فردت عليّ أمه، دون سلام ولا كلام طلبته بالاسم، استغربت والدته، ثم نادته لي.

سمعت صوته فارتاح قلبي وتباطأت دقاته. لا أعرف فعلاً كيف عرف صوت أنفاسي، تُرى هل هذا هو الحبّ؟

«أسماء»..!

رددتُ عليه، وبالكاد يسمع صوتي:

«نعم يا عيون أسماء وروحها.. كيف حال قلبي الذي تركته في صدرك؟».

ناداني مرة أخرى، قاطعني.. فأغمضت عيني أنتظر منه أن يكمل كلامه، أن يسطر لي أشواقه، أن يصف لي ما فعل به غيابي كل تلك الأيام.

«لقد قرأت رسالتك بتمعن، قرأتها كثيراً حتى حفظتها عن ظهر قلب، لم أتوقع في يوم من الأيام أن أحبّ محتالة، وأن أصدق مخادعة مثلك، إما أن أكون أحمق غطى العشق عيوني عن حقيقتكِ، وإما أن تكوني ممثلة بارعة محترفة الفساد».

شهقت بذلّ وهوان، أكمل هو دون أن يرحمني:

«أنتِ يا أسماء أسوأ بكثير من أكثر الناس سوءاً.. ما وجدتِ من الرجال إلا والدك لتتهميه؟ يا للخبث.. تعلمين تماماً أن لا أحد سيصدق ما تقولين، وإذا صدق، فهو لن يجرؤ ويسأل أباك عن حقيقة هتكه لعرضك مراراً وتكراراً.. يا لخبثكِ!».

صَمَتُّ لوهلة لم أسمع فيها سوى نشيجي فقال:

«لنفترض أنكِ كما تقولين ضحية.. لا دليل عندكِ».

أفكر، لو كانت مريم موجودة لتشهد معي، وتؤكد له براءتي.

يقطع حبل أفكاري بقوله:

«إن كان هناك دليل، لن أقدر.. أنا رجل شرقي غيور على شرفي وعرضي.. أعرف نفسي جيداً، ولن أستطيع أن أستأمنكِ على بيتي، وعلى أطفالي، لن أقبل فتاة مثلكِ».

أتأوه من شدة القسوة، من الجور والظلم، ينسحب ماجد، يقطع المكالمة وأنا لم أزل على الهاتف، ما زلت ممسكة بالسماعة في يدي، أسمع رنات الخط متواصلة.

وقعت السماعة على الأرض، ومعها وقع شيء من قلبي.. أتبول على نفسي بلا شعور، أحسُّ بالضعف، وببطء يدهمني ظلام بارد.

* * *

أشعر بيد مدسوسة تحت ثيابي، تحاول لمسي، أفز من النوم بفزع، أكاد أن أقع من على السرير من شدة الدوار، لكنني أتشبث بسور السرير.

طبيبة منتقبة تنظر إليّ بعينين بشوشتين.. ناعمة العود، ترتدي اللون الأبيض، أشعر بها كملاك.. تعتذر منّي بصوت منخفض، وتشرح لي بهدوء بأنّ عليها أن تفحصني وتتأكد مما قالته مريم للمحقق.

أنظر إليها بلا ردة فعل، وعندما حاولت أن تلمسني، أغلقت قدمي بقوة، فرفعت يدها في الهواء تحاول أن تكسب ثقتي، وأن تُثبت لي بأنها لن تمس منّي شيئاً إلا عندما أوافق.

بعد وهلة من الصمت، قالت لي إن التقرير الذي ستكتبه بعد فحصي مهم جدّاً في إدانة الجاني، ما سيتسبب في سجنه والتخلص من شرّه.

استغربت ما تقول، فنظرت إليها بتعجب لأسألها إن كانت قد صدّقت ما حدث، فردت علي:

«لستِ وحدكِ يا أسماء، فكثيرون مثلك، يعانون كما تعانين، يصمتون خوفاً من تكذيبهم، من نظرة مجتمعهم، من ضياع مستقبلهم، من عداء أُسرهم، من الفضيحة وكلام الناس، وطاعة لوالديهم».

فتحت لها ذراعي، قامت من مكانها، واحتضنتني، فبكيت على كتفها بكاء السنين، تلك الغريبة التي لم أعرف اسمها،

نفـذت إلـى داخـل روحـي، خاطبـت الطفلـة الأسـيرة فـي ظـلام كيانـي، تمسـك بذراعهـا تسـحبها إلـى النـور.

قالت لي وهي تمسح دمعتي بيدها:

«القانـون لـن يرحـم مـن خـان ربّ العالميـن فـي أمانتـه، لا تقلقـي، الـكلّ هنـا معـك، يعمل علـى خدمتـك، «البيدوفيليا» تنهـش المجتمع، وتـدق ناقـوس الخطـر، تتضافـر جهودنـا جميعـاً علـى معالجـة هـذه القضيـة، والتعامـل مـع مـا يسـمى «اشـتهاء الأطفـال» والحـدّ منـه، هـذه مسـؤوليتنا كلنـا، ولـن نتخـاذل عنهـا، ولـن نخذلكـم».

أضطجع إعلاناً عن موافقتي على أن تفحصني:

«أنا عفيفة».

تضرب على يدي بحنان مؤكدة لي:

«طاهرة وشريفة».

ترفع ثيابي لتفحصني، تقول لي بصوت غريب:

«حقـكِ سـيعود لـكِ يـا أسـماء، وسـينال المجـرم مـا يسـتحق، لا تقلقـي نحـن سـنحل الموضـوع بسـريّة تامـة تحفـظ لـك كرامتـك واحترامـك.. اسـترخي يـا ابنتـي».

استرخي، تأمرني بصوت أغرب:

«ارتاحي الآن يا أسماء».

أغمض عيني.. فأرتاح.

* * *

رائحة أعرفها جيداً تعيد لي وعيي، يقشعر جسدي.

فتحت عيني بسرعة، لم ترجع جدتي وصفية بعد من عند المعالجة، الهاتف ما يزال على الأرض حيث وقع، من أين تأتي تلك الرائحة العفنة؟

أحاول أن أقوم من فراشي لأبحث عن مصدرها وإذا بيد تمتد من خلفي تكمم فمي.. أكاد أموت رعباً.. لم يكن لصّاً، ولم يكن مختلّاً قاتلاً.. لقد كان أبي الذي ليتني ذبحته عندما سنحت لي الفرصة، ليت تلك المزهرية التي شججت بها رأسه قتلته، ليتني مِتّ في حادثة الدهس.. ليت مريم أخذتني معها!

الرائحة تزيد.. تكاد تخنقني، تزكم أنفي، تثير غثياني، كانت مزيجاً من الروائح النتنة؛ (عرق، خمر، سجائر، حشيش!)

سألت الله.. وخالد يجثم فوقي.. لماذا؟

ما انتظرت إجابة، ولم أبقَ طويلاً تحته، حاولت أن أقاومه فضربني، كان يرفس فخذي المكسورة بقوة، كأنه يتعمد إصابة المسامير ليشل حركتي.. الحقير لم يرحم ابنته!

صرخت بأعلى صوتي، صرخت كل ما مررت به، صرخت عذابات السنين، فوضع أصابعه في فمي يشقه لي.. يمنعني من فضح أمره، لم أشعر بالألم، على الرغم من شعوري بمذاق الدماء المالحة التي ملأت فمي.

غرست أظفاري في وجهه، فضرب أنفي بمقدمة رأسه كاسراً أنفي.. فقدت توازني، وقعت فألقى بنفسه عليّ، عضضته من رقبته؛ متأملة أن تنفذ أسناني داخل لحمه أقطع شريانه، لكنّه دسّ الفوطة التي استخدمتها جدتي ككمادات باردة في فمي الممزق.

عندما حاولت أن أسحب الفوطة لَكَمَ أنفي المكسور.. أغمي عليّ من شدة الألم وتمكّن منّي، نال من عذريتي!

لم أعلم كم مضى عليّ وأنا في تلك الحالة، محطمة، متناثرة، مبعثرة حتى عدت إلى وعي والدماء تلوثني. بالكاد أتنفس لا أشعر بشيء إلا التنميل في كل شبر من جسدي، لا أسمع إلا الصفير.

الجميع هرب..

مريم الأنانية هربت إلى عائلتها، ماجد الجبان هرب إلى ظنونه، جدتي الحنونة ليست بقربي، خالد هرب إلى جهة غير معلومة. الكل هرب مني، صرت وحدي مع علبة دواء بقيت حيث تركتها جدتي.

لن أستطيع أن أواجه العالم وحدي، سيوجهون لي أصابع الاتهام، وكلما كَبرتُ، كبرتْ اتهاماتهم، وتشكيكهم في أخلاقي، لن يصدقني أحد؛ فالمعتدي والدي، ولن يحميني أحد، فلا عائلة لي بعد تخليهم عني، لن أبقى له ليفعل بي ما يحلو له..

لـن أرضـخ.. أبتلـع الحبـة تلـو الأخـرى، فـكل حبـة أبتلعهـا تقربنـي مـن النهايـة.. أبتلـع الأقـراص وأنـا أسـمع صـوت معلمـة التربيـة الإسـلامية:

«إذا انتحرتِ ستخلدين في النار، ولن يترحم عليكِ أحد».

هـل بـدأ مفعـول الأقـراص التـي ابتلعتهـا؟ أم أنهـا الآلام بـدأت كالعـادة تتكالـب علـى روحـي. فترتعـد أوصالـي وترتعش؟ لسـت علـى مـا يـرام، ولكـن متـى كنـت كذلـك؟

أنـا لا أتذكرنـي إلا مضطربـة، مشوشـة متخبطـة أشـعر بالقهـر.. حياتـي بائسـة!

يومي كأمسي.

أبتلـع القـرص وراء الآخـر حتـى أنهيـت مـا فـي العلبـة، أو ربمـا مـا تبقـى مـن شـبابي.. أقضـي علـى حياتـي بيـدي، هنـا فـي غرفتي، لـم أشـفق علـى نفسـي أو يـرق قلبـي لـي.. القـرص الأخيـر ابتلعتـه بصعوبـة ليـت بـه خلاصي.

لسـت أدري.. هـل كان الـدوار فـي رأسـي، أم كان مكانـي يـدور بـي؟ كلمـا هـدأت دارت بـي الذكريـات، وجـاءت أشـباحها لتنتصـب أمامـي!

أسـتغرب! أبقـى هادئـة، سـاهمة، كأننـي متمسـكة بالحيـاة، وكأننـي نادمـة علـى محاولـة انتحـاري، وأكثـر مـا يثيـر اسـتغرابي حـرّ دموعـي الحارقـة!

على مَنْ أبكي؟ ولماذا أبكي؟ بودّي لو مزقتُ عينيّ.

أشعر بثقل جفنيّ، وتسارع أنفاسي.. يعاودني الإحساس بالدوار، وكأن كلّ ما حولي يدور بي.

الطبيبة قالت:

«سنرد لك حقك».

وقالت:

«لستِ وحدك».

منْ تُراه معي؟

يطوّقني السؤال، ولا أدري لماذا تأتي إليَّ صورة خالد.

تمت

الكويت، 17 يوليو 2018م